الإصدار ٥

سلسلة دراسات في العقيدة والأديان

دراسات في الدين والتدين

تأليف

أ.د. محمود محمد مزروعة

أستاذ العقيدة والأديان بجامعة الأزهر وأم القرى

دار اليسر

سلسلة

دراسات في العقيدة والأديان

٨

دراسات في

الدين والتدين

تأليف

الأستاذ الدكتور

محمود محمد مزروعة

أستاذ العقيدة والأديان بجامعتي الأزهر وأم القرى

دار اليسر

بسم الله الرحمن الرحيم

دراسات في

الدين والتدين

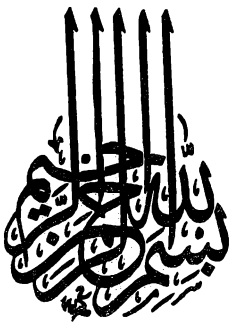

رقم الإيداع

٢٠١٧/١٤١٦٩

ترقيم دولي

978-977-794-045-0

دراسات في الدين والتدين

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧ م

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

مزروعة، محمود محمد

دراسات في الدين والتدين

تأليف محمود محمد مزروعة

القاهرة، دار اليسر ٢٠١٧م.

٢٠٣ص، ١٧ × ٢٤سم.

تدمك ٩٧٨٩٧٧٧٩٤٠٤٥٠

١ - الدين - فلسفة

أ - العنوان

٢٠٠.١

دار اليسر للنشر والتوزيع غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية، أو إليكترونية؛ أو ميكانيكية، ويشمل ذلك: التصوير الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة؛ أو أقراص مضغوطة؛ أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك: حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

٤٠ ش عبد العزيز عيسى، المنطقة التاسعة، الحي الثامن

مدينة نصر، القاهرة، جمهورية مصر العربية

تليفون: ٠٢ ٢٤٧٠٩٢٦٩ محمول: ٠١٠٦٢٢٧٦٢٠٨

فاكس: ٠٢ ٢٤٧١٤٨٠١ خدمة عملاء: ٠١١١٨٠٠٦٠٦٠

www.dar-alyousr.com

Email:alyousr@gmail.com

info@dar-alyousr.com

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين، وعلى إخوانه وآله وأصحابه والتابعين.

أما بعد:

فإن دراسة الأديان من الدراسات الهامة التي عني بها الإنسان على مدى تاريخه الطويل؛ وذلك لمكانة الدين لدى الإنسان ومنزلته منه، وما يمثله من خطر بالنسبة له في حياتَيه الدنيا والآخرة.

لكن دراسة الأديان أضحت في العقدين الأخيرين من أهم الدراسات التي عني بها المثقفون وأنصاف المثقفين، بل أضحت أهمَّها على الإطلاق، ولم يقف الاهتمام بالدين عند حدود الدراسة المنهجية في مؤسسات التعليم على كثرتها، ولكنه تخطى هذه الحدود، وأصبح شائعًا لدى كافة القارئين والدارسين على اختلاف مستوياتهم، وتباين ثقافاتهم، حتى ليصح أن توضع تلك الظاهرة ضمن الظواهر المميِّزة لهذا العصر، وهذه حقيقة تؤكدها الإحصاءات الرسمية، ففي المؤسسات التي تعنى ببيع الكتاب، وفي المعارض التي تقام لهذا الشأن تؤكد الإحصاءات أن الكتب الدينية تحتل المكانة الأولى في المبيعات، وأن الإقبال على شراء تلك الكتب لا يماثله ولا يدانيه نوع آخر من أنواع المعارف.

ولئن كانت العناية بدراسة الأديان، والاهتمام بفروع المعرفة المتصلة بها تمثل ظاهرة صحية، فإن من الظواهر غير الصحية الإقبال على تلك الدراسة دون خلفية مناسبة تعين الدارس على فهم موضوعات ذلك العلم، ودون أن

تكون لديه حصيلة من المعارف تمهد لتلك الدراسة، وليس من شك أن خوض ذلك المحيط المتلاطم بكثير من المعارف المتعارضة والمتناقضة دون خلفية من المعلومات تمهد للدارس وتعينه على خوض ذلك المحيط، يمثل ظاهرة خطيرة وغير صحية.

وإلى هذه الظاهرة غير الصحية يعزى كثير من مشاكل الشباب في هذه الأيام، فهم يقبلون على دراسة الدين، دون أن يكون لديهم الحد الأدنى من المعارف التي تؤهلهم لتلك الدراسة، فإذا قرأ الواحد منهم مؤلَّفًا أو مؤلفين، أخذ ما فيهما من معلومات على أنه الحق الذي لا ريب فيه، واستقر في روعه أنه أضحى عالمًا في موضوعه، فلا حاجة به إلى سؤال غيره، بل قد نصَّب نفسه مفتيًا يقطع بالرأي في كثير من المسائل الشائكة التي اختلف العلماء حولها وما يزالون، وليس ذلك إلا لأنه أقبل على تلك الدراسة دون حصيلة من المعارف تمهد لها وتعين عليها.

لذلك قمت بوضع هذه الأبحاث لتكون تمهيدًا لِدِرَاسَة الأديان، تعين دارس الأديان بصورة عامة ودارس الإسلام دين الله الحق بصورة خاصة، داعيًا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ينفع بها، وأن يجعلها خالصة لوجه الكريم.

محمود محمد مزروعة

مدينة نصر في غرة رجب ١٤٣٨هـ.

الموافق ٢٩/ ٣/ ٢٠١٧م.

المبحث الأول

تعريف الدين

- الاختلاف حول تعريف الدين ودوافعه.
- أدلة الرأي المعارض ونقدها.
- الدين في اللغة.
- الدين في الاصطلاح.
- تعريف الدين في رأينا.

تعريف الدين

يراد بتعريف الدين تعيين الخصائص التي لا بد منها لكل دين، وتبيين المقومات الكلية والعناصر العامة التي لا يُسمى الدين دينًا إلا بها، وبذلك نصل إلى المعنى الكلي الذي يجمع الأديان كلها، والوحدة المعنوية التي تحتويها عامتها، والقدر المشترك الذي يشيع فيها جميعها.

وذلك يحتاج منا إلى بحث في الأديان على اختلافها، الإلهي منها والوضعي، ويتطلب منا أن نلمَّ بكل ما ظهر من الأديان، سواء في ذلك ما كان منها حقًّا وما كان باطلًا، وسواء في ذلك ما كان بدائيًّا أو متحضرًا، قديمًا أو حديثًا، كثير الأتباع مسموع الصوت، أو قليل الأتباع لا تسمع له ركزًا.

ولا يفوتنا ابتداءً أن ننبه على المصاعب الجَمَّة التي يقابلها الذي يتعرض لهذا المطلب الصعب، ويحاول تذليل هذا الموضوع الشموس، فهو يجد نفسه:

أولًا: أمام أشكال مختلفة، وألوان متباينة من الأديان لا يكاد يحصرها عَدٌّ، أو يحدُّها حَدٌّ، وهذه الأديان كلها لا تجمعها وحدة واحدة ولا تقع تحت جنس قريب، ومن هنا يصعب استخراج معنًى كلي يشملها جميعها.

ثانيًا: يجد أن كل دين من هذه الأديان ينشعب إلى شعب كثيرة، وينصدع إلى صدوع عديدة، فلا يكاد المرء يبدأ البحث حتى يجد نفسه أمام جمع هائل من الأديان، وأمام كل دينٍ ركام هائل من المذاهب والشِّيَع، والملل والنحل،

والطوائف والفرق، وقد يصل أمر الخلاف بهذه الفرق والشيع التي تفرعت عن الدين الواحد حدًّا يخرج بها عن الأصول العامة لهذا الدين الذي خرجت منه، وتفرَّعت عنه.

ثالثًا: يضاف إلى ذلك أن الأديان- غالبًا- لا تثبت على حالة واحدة، فعند تطبيقها موضوعيًّا يقع عليها الكثير من التغيير والتبديل، مما يبعد بها قليلًا أو كثيرًا عن أصولها النظرية، وذلك أمر يتطلب من الباحث نظرة فاحصة، وجهدًا مضاعفًا، ويحتاج منه دقة في التحليل، وحيدة في التقرير، وموضوعية في التفكير، حتى يصل إلى هدفه، ويخلص إلى غايته.

رابعًا: يجد الباحث في هذا الموضوع انقسامًا بين العلماء المعنيِّين به، فبعضهم يمنع هذا الموضوع من أساسه، ويرى أن تحديد مفهوم للدين أمر مستحيل، ويعلن حربًا شعواء على كل مَن اقترف هذه الخطيئة العلمية – من وجهة نظره.

والبعض الآخر الذي يبيح تحديد مفهوم للدين يتدابر ويتنافر، فلا يكاد يجتمع اثنان على تعريف واحد أو مفهوم معين للدين، وإنما يخرج عليك كل واحد من هؤلاء بتعريف خاص به، يختلف فيه قليلًا أو كثيرًا عن التعريف الذي وضعه غيره.

ومن عجيب أن بعض هذه التعريفات لا يختلف مع التعريفات الأخرى إلا في فكرة عرضية، أو عبارة لفظية، ومع ذلك نجد صاحب التعريف يخلق من هذه الفكرة العرضية، وذلك التعبير اللفظي مجالًا واسعًا للخلاف والتطاحن.

ونحب أن ننبه إلى أن مجال التعريفات والتحديدات المنطقية مجال دقيق،

كثيرًا ما تختلط فيه الألفاظ بالمفاهيم، وإذا لم تخلص فيه النية للحق، كثر فيه اللجاج والجدل، وضاعت وسط ذلك كله احتمالات الوصول إلى الغاية المرجوة، وقديمًا قالوا: الحق نية، والصدق عزيمة، ومن طلب الخطأ وتحرَّاه... وجده.

الاختلاف حول تعريف الدين ودوافعه

قلنا إن هناك فريقين: فريق لا يسمح بتعريف الدين، وفريق يسمح بذلك.

ولقد اتخذ الفريق الأول الذي لا يرى وضع تعريف للدين، أو تحديد مفهوم له، من التعريفات الكثيرة التي وضعها الفريق الثاني للدين سلاحًا يحارب به هذا الفريق، وحجة يرى فيها السند القوى على صدق رأيه وصحة اتجاهه.

فذهب الكثيرون إلى أن اختلاف العلماء حول تعريف الدين وكثرة التعريفات التي وضعوها له، دليل على أنه لا يصح وضع تعريف للدين، أو تحديد مفهوم له، وأن ذلك منهج خاطئ، واتجاه غير سليم.

ومن هؤلاء الشيخ مصطفى عبد الرازق رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي كتب حول تعريف الدين، وبعد أن ذكر تعريف الدين في اللغة عند الغربيين، وفي لسان العرب، ذكر تعريفات عدة وضعها علماء الغرب للدين، وبعد أن ناقش هذه التعريفات وخطَّأها، علق عليها بقوله: «على أن هذه الحيرة، حيرة العلماء في تحديد عناصر الدين، وهذا الخلاف بينهم على وضع تعريف يعرب عن حقيقته، كل أولئك يدل على أن العلم لم يكشف الحجب عن الدين وأسراره، وربما كان من غرور العقل البشري أن يزعم لنفسه القدرة على هدم بناء متين متغلغل الأسس في الفطر الإنسانية، من قبل أن يعرف مواد هذا البناء أو يعرف كيف تم بناؤه»[1].

ومن هؤلاء- أيضًا- الأستاذ عبد الكريم الخطيب الذي يرى أن تحديد

---

(١) الدين والوحي والإسلام، الشيخ مصطفى عبد الرازق، (ص٢١)، ط ١٩٤٥.

مفهوم للدين أمر مستحيل، ويستدل على رأيه هذا بالاختلاف بين العلماء والفلاسفة في تعريف الدين وتحديد مفهومه، ثم يعقب على ذلك بذكر تعريفات عدة وضعها العلماء كدليل على ذلك الاختلاف [١].

ولكننا لا نتفق مع هؤلاء في الرأي؛ فالاختلاف حول الشيء، وعدم اتفاق الباحثين في موضوع معين على رأي موحد، ليس دليلًا على عدم جدوى البحث فيه، وليس دليلًا وحجة توجب تركه جملة، ولقد اختلف الباحثون وما يزالون مختلفين حول تعريف الحقيقة والبحث عنها، ولم يقل أحد من العقلاء- بناء على ذلك: إن الحقيقة غير موجودة، ولم يطلب أحد من الباحثين أن يريحوا أنفسهم من عناء البحث عنها.

على أن العكس قد يكون هو الصحيح، فإن كثرة التعريفات دليل على كثرة الباحثين، وكلما كثر الباحثون عن الشيء وزاد الإقبال عليه دلَّ ذلك على أمرين:

الأول: إمكانية الوصول إلى ذلك الشيء والحصول عليه.

الثاني: أهمية ذلك الشيء ومكانته لدى الباحثين.

وإذن فكثرة التعريفات ليست دليلًا على خطأ وقع فيه المعرِّفون كما زعم ذلك الفريق، بقدر ما هي دليل على صحة اتجاههم وإصابتهم فيما يهتمون له ويقومون به.

على أننا نستطيع أن نضع أيدينا على سبب الكثرة التي يراها الباحث في التعريفات التي وضعها العلماء للدين، والاختلاف الكبير الذي وقع بينهم حول هذه التعريفات، فهي ترجع إلى أمور أهمها:

---

(١) الله، ذاتًا وموضوعًا، عبد الكريم الخطيب، (ص٣-٦)، ط ١٩٦٢.

أولًا: صعوبة الموضوع الذي يقوم حوله البحث، فالأديان كثيرة متشعِّبة، وكل دين ينشعب منه كثير من الطوائف والمذاهب والفرق والشيع، وهذه الفرق والشيع قد تخرج بتفريعاتها الكثيرة عن الأصل الذي انشعبت منه؛ مما يجعل الموضوع أكثر صعوبة على ما بينَّا ذلك وأوضحناه.

ثانيًا: اختلاف التخصصات، وتباين مناهج الدراسات لدى هؤلاء الذين أخذوا على عاتقهم وضع تعريف للدين، وتحديد مفهوم له، فبعض الباحثين قد تخصَّص في الدراسات الاجتماعية، فإذا نظرت إلى تعريفه للدين تجده قد بين لك أثر الدين في الجماعة الإنسانية، ولم يبين لك مفهوم الدين في ذاته، وبعضهم قد تخصص في الدراسات النفسية، ومن هنا تجد أن تعريفه للدين لا يزيد على ترجمة الانطباعات التي يتركها الدين في النفس الإنسانية، أو أثر التدين في النفس الإنسانية، وهكذا كل مختص يترجم في تعريفه للدين عن اختصاصه ليس أكثر.

ثالثًا: التأثر أو التعصب لدين بعينه، فكثيرًا ما نجد الباحث يتعصب لَا شُعُوريًّا لدينه الذي يعتنقه أو ضد دين يعتنقه غيره، ومن هنا كثيرًا ما نجد بعض التعريفات لا تنطبق إلا على أديان بعينها، وبذلك نجد هذا التعريف غير جامع، فهو يُخرج من زمرة الأديان كثيرًا من الأديان التي لا يشك أحد في أنها أديان، ومثل ذلك الاتجاه نجده في الباحثين الذين يعتنقون الأديان الكتابية، فكثيرًا ما يَقْصُرُون تعريفاتهم للدين على تلك الأديان الكتابية فقط، غير معترفين بأن ثمَّة أديانًا وضعية لا بد أن يشملها بحث الباحث.

هذه هي الأسباب، أو لعلها أهم الأسباب التي نتج عنها الكثرة الكاثرة في تعريفات الدين، كما نتج عنها الاختلاف الكبير حول هذه التعريفات.

وكما ذكرنا سابقًا، نذكر هنا بأن هذه ظاهرة صحية، وليست ظاهرة مرضية كما قد يُظَن، بمعنى أن كثرة التعريفات للدين والاختلاف حولها ليس دليلًا على خطأ هذا الاتجاه في ذاته، بقدر ما هو دليل على صحته وسلامته، وعلامة على خطره وأهميته.

أدلة الرأي المعارض ونقدها

ويحسن قبل أن ندخل في تعريف الدين أن نناقش أصحاب الرأي المعارض الذين لا يبيحون وضع تعريف للدين أو تحديد مفهوم له، وذلك حتى يسلم لنا مذهبنا ويخلص اتجاهنا.

ومن هذا الفريق أناس عارضوا وضع تعريف للدين، ولم يذكروا حجة في ذلك سوى الاختلاف الكبير بين أصحاب التعريفات، وعدم استقرارهم على رأي واحد، رغم الجهود الكبيرة التي قاموا ويقومون بها، وهؤلاء لن نناقشهم هنا، فلقد سبق- قريبًا- أن ناقشنا مسألة كثرة التعريفات واختلافها، وبيَّنَّا أسبابها، وأوضحنا أنها ظاهرة سليمة لا غبار عليها.

ومن هذا الفريق أناس لم يقتصروا على ما اقتصر عليه غيرهم، ولم يعتمدوا على الاختلاف في التعريفات سندًا لرأيهم في عدم وضع تعريف للدين، بل ذكروا أمورًا أخرى كأدلة وحجج تساندهم في مذهبهم، وهؤلاء هم الذين سنناقش أدلتهم هذه لنرى مدى صحتها، ومقدار سلامتها.

وسنأخذ مثالًا لهؤلاء الأستاذ عبد الكريم الخطيب، هذا المفكر قد حمل على الذين يضعون تعريفات للدين، وناقشهم وخطَّأ وجهتهم، وذكر بجانب اختلافهم على أنفسهم أدلة أخرى نجملها فيما يلي، فهو يرى:

أولًا: أن الدين صلة شخصية روحية بين الإنسان والإله، وبينه وربه المعبود.

ثانيًا: أن الدين عاطفة إنسانية فردية، حولها تجتمع كل عواطف الإنسان.

ثالثًا: وهو لهذا- لأن الدين عاطفة فردية وصلة شخصية- يرى أنه يستحيل وضع مدلول لفظي يطالع فيه كل متدين حقيقة الدين الذي يؤمن به.

رابعًا: يرى استحالة وضع تعريف للدين؛ لأن الناس يختلفون من حيث الصدق والإيمان واليقين؛ لأن الدين مكابدة فردية، ومعاناة ذاتية.

خامسًا: يرى أن الوضع السليم لكل متدين لكي يعرف دينه ويكتشف حقيقة هذا الدين، أن ينطوي إلى الداخل وليس إلى الخارج لكي يكشف هذا الدين، دينه هو الشخصي الذي لا رابطة بينه وبين الأديان الأخرى في الخارج، بل لا رابطة بينه وبين الآخرين ممن يدينون بنفس دينه ويعتنقون عين عقيدته، وهو يرى أن المتدين حسبه في اكتشافه دينه أن يجد الإحساس الديني الذي يتخلق في كيانه من مفاهيم عقيدته، وتصوراته لتلك المفاهيم.

سادسًا: يذكر بعد ذلك تعريفات وضعها بعض الفلاسفة للدين، ويستدل من اختلافها على صدق رأيه وخطأ الآخرين [١].

هذا ما ذكره الأستاذ الخطيب في اعتراضه على تعريف الدين.

والرد عليه سهل ميسور:

أولًا: أن الدين وإن كان صلة روحية بين الإنسان وربه ومكابدة ذاتية، فهو إلى ذلك حقيقة خارجية لها مظاهرها وآثارها الواضحة على الفرد والجماعة على سواء.

ثانيًا: أن الأديان جميعها تتميز بشعبيتها وعمومها بين أفراد المتبعين لها؛

---

(١) الله، ذاتًا وموضوعًا، (ص٣-٦).

فهي وإن كانت معاناة فردية إلا أنها عامة وشعبية، وليس أدل على ذلك من العبادات والطقوس التي يؤديها المتبعون لها في كل دين، والتي تقوم أساسًا على الاجتماع والكثرة.

ثالثًا: أن الأديان وإن كانت عاطفة فردية فإنها لم تترك لكل فرد حرية أن يتصرف فيها كما يشاء ويكيفها كما يريد، ولكن كل دين مهما كانت صفته قد قام على أُسُسٍ وقواعد، ونظم وتشريعات وعقائد، وهذه كلها يجب أن يتبعها ويسير عليها ويتمسك بها كل من يتدين بهذا الدين ويعتنقه، معنى هذا أن الدين ليس في جوهره عاطفة شخصية، وإنما هو حقيقة خارجية تحكمها تعاليم معينة وعقائد وتشريعات محددة، ولم يترك للجانب الشخصي من كل ذلك إلا مدى الإخلاص في اتباع هذه التعليمات والتمسك بها.

رابعًا: يبين من هذا أن الدين حقيقة عامة في جوهره، أما الجانب الشخصي فيه فهو مقصور على مدى التمسك به، والسير على تعاليمه، والإخلاص في تطبيق هذه التعاليم، وليس أدل على ذلك من أن الدين ظاهرة عامة تصطبغ بها تصرفات الأفراد والجماعات على سواء، وتظهر هذه الصبغة في كل مناحي الحياة الفردية والجماعية، لا يكاد يخلو منها جانب صغير أو كبير، مما حدا بالكثيرين من العلماء أن يذهبوا إلى أن الدين هو العامل الأساسي وراء كل التغيرات التي تطرأ على حياة الأفراد والجماعات، سواء في ذلك الناحية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

وهذا صحيح إلى حد كبير- على ألا تهمل الجوانب الأخرى.

خامسًا: ومهما أثرنا من نقاش أو جدل، ومهما ذكرنا من أدلة وحجج

فوضع تعريف للدين أمر لا مفر منه مهما كان صعبًا وشموسًا، فأنت ترى بجانب الأديان مذاهب خاصة، أو عامة في الفلسفة والاقتصاد، والسياسة، والأخلاق، والأدب، والفن، والجمال.. إلخ، فكيف بنا إذا أردنا أن نتعرف على الدين وسط هذه الضوضاء الصاخبة؟

ليس هناك سوى التعريف سبيل إلى ذلك.

ثم إنك تحس فيك نزعة ضرورية بها تحكم بأن هذا المنحى مذهب اقتصادي، وذاك مذهب سياسي، وغيره اجتماعي، وهكذا، ثم تأتي على واحد من هذه وتحكم بأنه ليس من هذا أو ذاك، وإنما هو دين، فكيف عرفت هذا، وعلى أي أساس أصدرت حكمك؟

نكرر ثانية: ليس هناك سوى التعريف سبيل إلى ذلك.

الدين في اللغة

ذُكرت آراء كثيرة، وخلافات عديدة حول معنى كلمة (دين) في اللغة، وكأنه قد قُدِّر لهذه الكلمة أن يظل الخلاف حليفها حتى في المعنى اللغوي الذي قليلًا ما يقع الخلاف حوله.

والمتتبع لمعنى هذه اللفظة في معاجم اللغة لا يصل من ورائها إلى شيء يذكر، اللَّهُمَّ إلا ركام هائل من الاستعمالات المتضاربة- بل والمتناقضة- والتي يصعب فيها اكتشاف أيها حقيقي وأيها مجازي.

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق: «في معاجم اللغة العربية معان كثيرة لكملة (دين)، وصل بها بعضهم إلى العشرين أو تزيد، لكن هذه المعاني منها ما هو مُوَلَّد بعضه من بعض، ومنها ما هو مجازي، وبعضها متداخل.

ومن معاني الدين (الملَّة)، وهو مولَّد كما نص عليه الراغب الأصفهاني في كتاب «المفردات في غريب القرآن»، يقول: والدين يقال للطاعة والجزاء، واستعير للشريعة، والدين كالملة، لكنه يقال اعتبارًا بالطاعة والانقياد للشريعة، فللدين- على رأيه- معنيان لغويان أصليان هما الطاعة والجزاء، ومعنى الشريعة مستعار من الأول»[1].

ولا يفوت الشيخ مصطفى عبد الرازق أن يستشهد في كلامه برأي المستشرقين

---

(١) المصدر السابق (ص٢٣-٢٤).

الغربيين النصارى على معنى كلمة دين العربية المسلمة، فيقول:

«يقول المستشرق (ماكدونالد) في الفصل الذي كتبه عن كلمة دين في دائرة المعارف الإسلامية: «توجد في الحقيقة ثلاث كلمات متباينة في ثنايا الخليط من المعاني الذي يحشده اللغويون للفظة دين:

١- كلمة آرامية عبرية بمعنى حكم.

٢- كلمة عربية بمعنى العادة والديدن.

٣- فارسية لا صلة لها بالكلمتين الأوليين تدل على معنى الملة»[١].

ثم نقل عن فولرز، أنه ينكر وجود هذا اللفظ عربيًّا أصليًّا، ويقرر أن لفظ «دين» الفارسي كان مستعملًا عند العرب قبل الإسلام، وأن كلمة «دين» بمعنى العادة قد أُخذت منه».

ويعلق على ذلك الشيخ مصطفى عبد الرازق فيقول:

«وبعيد أن يكون لفظ «دين» بمعنى ملة، لفظًا غير عربي، خصوصًا مع الاعتراف بوجود اللفظ نفسه عربيًّا بمعنى آخر في رأي ماكدونالد.

والناظر في هذه المادة يجد من تفنن العرب في الاشتقاق منها، وتعديد الصيغ، وفي تشعب استعمالاتهم لها ما لم تجر به عادتهم في الكلمات المعربة»[٢].

والشيخ مصطفى عبد الرازق بعد أن ذكر رأي الراغب الأصفهاني ورأى ماكدونالد النصراني نراه يميل إلى رأي ماكدونالد، وينقد رأي الراغب الأصفهاني، فيقول: «إن كلمة دين في الإسلام لا تعني الطاعة والجزاء والحساب،

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية (٢/ ٥٦١).

(٢) الدين والوحي والإسلام، مصطفى عبد الرازق، (ص٢٢)، ط١٩٤٥.

حيث إن ذلك يستلزم أمرًا يطاع وآمرًا، ويستلزم مجازيًا ومحاسبًا، ويقول: إن العرب كان من ديانتهم في الجاهلية ما ينكر الألوهية والجزاء والحساب، وإن الإسلام سمى هذه ديانات، فقال تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]»[١].

والدكتور محمد عبد الله دراز رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرى: «أن المعاجم اللغوية لا توضح لنا المعنى المراد من الدين، ولا نستطيع أن نستخلص منها هذا المعنى بسهولة، فهي لا تكشف لنا عن معاني هذه الكلمة بقدر ما تعدد لنا الوجوه المتشعبة لهذه الكلمة، ويرى الدكتور أن المعاجم لها العذر في ذلك، فإن مهمتها لا تتعدى ضبط الألفاظ؛ ولذا فنحن لا نعجب إذا رأينا المعاجم تفسر لنا الشيء أحيانًا بضده أو نفسه، فتقول مثلًا: الدواء هو: ما يتداوى به، والحلال: ضد الحرام... وهكذا»[٢].

ويذكر الدكتور أن الذي يرجع إلى المعاجم في التعرف على معنى كلمة دين، يجد عديدًا من المعاني المتضاربة، بل والمتضادة- أيضًا-.

فالدين هو: العز وهو الذل، وهو الإحسان وهو الإكراه، وهو الملك وهو الخدمة، وهو القهر والسلطان، وهو التذلل والخضوع... إلى آخر ما ذُكر من الاستعمالات.

ولكن الدكتور رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرى رغم ذلك كله أن باستطاعتنا أن نصل إلى المعنى المراد من كلمة «دين» في اللغة، فهو يرى أن هذ اللفظة «دين»، ترد إلى استعمالات ثلاثة لا تحيد عنها، وهذه المعاني الثلاثة متلازمة، حيث ترجع إلى ثلاثة أفعال، يتعدى أحدها بنفسه، والثاني بالياء، والثالث باللام.

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية (٢/ ٥٦١)..

(٢) الدين؛ بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، لمحمد عبد الله دراز (ص٢١) ط الثالثة ١٩٩٠م. دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية.

فالذي يتعدى بنفسه يعني الملك والتحكم والسيطرة، مثل دانه دينًا، «الكيِّس من دان نفسه»[١]، ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

والذي يتعدى باللام يعني العكس، يعني الخضوع والطاعة والاستسلام، مثل: دان لي.

والذي يتعدى بالباء يعني الالتزام والاعتقاد، واتخاذ الشيء مذهبًا وعقيدة، مثل: دنت به.

ويقول: «جملة القول أن كلمة «دين» عند العرب تشير إلى علاقة بين طرفين يعظم أحدهما الآخر ويخضع له، فإذا وصف بها الأول كانت خضوعًا وانقيادًا، وإذا وصف بها الثاني كانت إلزامًا وسيطرة وحكمًا وأمرًا، وإذا نظرنا إلى العلاقة بين الاثنين كانت الدستور المنظم لتلك العلاقة والمظهر لها.

ونستطيع أن نقول: إن المادة كلها تدور على معنى الإلزام، ففي الأول إلزام، وفي الثاني التزام، وفي الثالث هو المبدأ الذي يلزم الانقياد له أو الذي ينظم الانقياد والالتزام.

ويضيف الدكتور العالم رَحِمَهُ ٱللَّهُ قائلا: ولا يخفى أن الإلزام هو المعنى الذي تدور عليه كلمة «الدَّين» بفتح الدال أيضًا، وأن الفرق بينهما أن أحدهما يتضمن التزامًا أدبيًّا، والآخر يضمن التزامًا ماديًّا.

ثم يصل الدكتور العالم من وراء ذلك قائلًا: من ذلك يتبين أن الكلمة عربية أصيلة، وليست معربة عن العبرية أو الفارسية كما يقال[٢].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٩) وابن ماجه (٢٤٦٠) وقال الترمذي: حسن.

(٢) الدين، د. محمد عبد الله دراز، (ص٢٣-٢٤).

وبعد أن ذكرنا هذين الرأيين لهذه العلمين في اللغة والدين لا نظن أننا بحاجة إلى أن نذكر بعدهما رأيًا لسواهما، غير أن لنا تعقيبًا على هذين الرأيين.

فنحن نلاحظ أن الشيخ مصطفى عبد الرازق رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يأت بجديد، ولم يقم بأي مجهود، وإنما كل ما فعله أنه ذكر رأيًا للراغب الأصفهاني، ثم قفى على أثره برأي ماكدونالد المستشرق النصراني الذي لا هو من العرب ولا من المسلمين، والذي لا يود العرب ولا يود المسلمين، ولا يُكِنُّ للإسلام إلا كل ضغينة وحقد، ولا يعدُّ له إلا كل هدم ونقض، هذا النصراني الذي أراد أن يطعن الإسلام عن طريق الطعن في اللغة العربية، فذكر أن اللغويين من العرب لم يصلوا إلى معنى كلمة «دين» حتى وقته، فهم- على حد قوله- يذكرون خليطًا من المعاني لهذه الكلمة، ومن ثم فقد جاء هو- وهو الأعجمي النصراني- ليبين للعرب وأهل اللغة معنى كلمة «دين» الإسلامية، ويبدأ هذا الأعجمي مؤامرته فيذكر أن هذه اللفظة موجودة في العبرية والفارسية والعربية، ثم ينتقل إلى الفصل الثاني ليكمل المؤامرة فيتستر وراء أعجمي مثله، فينقل على لسان فولرز، أن هذه الكلمة أصيلة في العبرية والفارسية، لقيطة في العربية، ويقرر أن الكلمة العربية مأخوذة عن الفارسية.

وماذا ينتظر من طعن على الدين أكثر من أن تكون الكلمة التي تعتبر من أهم دعاماته في اللغة والكتاب والتشريع، غير أصيلة، بل منحولة منقولة عن غيره.

ونلاحظ أن الشيخ مصطفى عبد الرازق الذي كان يجيد لغة أجنبية أو أكثر كان حَسن النية بهؤلاء المستشرقين إلى حد كبير، فهو حين أراد أن يعلق على كلمة فولرز ليثبت أن كلمة «دين» أصيلة في لغة القرآن، لم يجد أحدًا يستشهد برأيه ويستند إليه في ذلك سوى ماكدونالد نفسه.

وعلى العكس من الشيخ مصطفى عبد الرازق، نجد الدكتور العالم الشيخ محمد عبد الله دراز الذي نفذ بعقله وفكره وراء هذه الكلمة في لغة العرب التي أعيت الكثيرين، فاستطاع أن يذللها، وينفي عنها الاضطراب والغموض الذي يبدو لكل من يقترب منها، وعلى كثرة ما قرأنا عن هذه الكلمة في المعاجم وغيرها، نشعر لأول مرة أن الرجل استطاع أن يقترب مِن لُبِّ هذه الكلمة ويصل فيها إلى كلمة سواء.

فقد ذكر الدكتور دراز أن هذه الكلمة «دين» تدور مادتها على معنى الإلزام والالتزام على ما بيَّنَّا.

ونحن إن كنا نلمس بعض الاستعمالات التي قد تخرج عن هذه القاعدة، إلا أنها إما أن تكون استعمالات مجازية، أو شاذة، والاستعمال المجازي والشاذ موجود في كثير من مواد اللغة، ولا اعتبار به، وحسب الرجل ما وصل إليه في ذلك، جزاه الله عن العربية وعن الدين كل خير.

الدين في الاصطلاح

نعرض هنا لتعريف الدين في الاصطلاح لدى العلماء، وحسبنا في التعرُّف على آراء العلماء في هذا أن نكمل الرحلة مع العالِمين العَلَمين الذَين صحبناهما في رحلتنا للبحث عن تعريف الدين في اللغة، فهما- من وجهة نظرنا- خير من يوضح لنا المراد بلفظه «دين» في اصطلاح العلماء.

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق- في تعريف الدين في الاصطلاح: «والذي يكون محتويًا على المعنى المشترك فيها، من غير أن يشتمل ما لا يسمى دينًا، هو المعنى القائم على أن الدين: هو الإيمان بأن الموجودات كلها ليست من نوع واحد ولا في مرتبة واحدة، بل بعضها أسمى من سائر الأنواع، أو هو الإيمان بذلك بشرط أن يكون ملةً تجتمع على الأخذ بها أمة من الناس»[1].

ويستطرد الشيخ قائلًا: «هذا هو المعنى العام الذي ينبغي أن يفهم من لفظ «دين» في لغة العرب، كما هو المعنى العام الذي يقابل لفظ «دين» في اللغات الأعجمية؛ أي أن هذا هو الحد التام لماهية الدين، والتي لا يتحقق بدونها أية حقيقة دينية في أي جيل من الناس»[2].

---

(١) الدين والوحي والإسلام، لمصطفى عبد الرازق، إصدار مجمع البحوث الإسلامية، تقديم محمود حمدي زقزوق القاهرة، مصر(١٤٣٧هـ) (ص١٥)

(٢) الدين والوحي والإسلام، للشيخ مصطفى عبد الرازق (ص٢٨-٢٩)، ط ١٩٤٥.

هذا هو تعريف الشيخ الذي ذكره للدين، ونحن نلاحظ عليه ما يلي:

أولًا: أنه لم يبين في تعريفه شيئًا عن الدين سوى جانب واحد من جوانبه، ذلك هو الإيمان بأن ثمة موجودًا أو موجودات أسمى من سائر أنواع الموجودات، وهذا جانب من جوانب الدين فقط وليس هو الدين.

ثانيًا: إذا كان الشيخ يريد من ذلك النوع- الذي هو أسمى من سائر الأنواع- أنه هو الإله المعبود، فإنه لم يبين صفة ذلك المعبود، ولم يتكلم عنه بكلمة واحدة، هل هو مادي؟ أو غير مادي؟ هل هو محسوس أو غيبي؟ هل هو اتصالٌ عَلِيٌّ بالبشر، أو منعزل عن البشر... إلى غير ذلك.

ثالثًا: كذلك لم يبين نوع العلاقة القائمة بين ذلك النوع الأسمى وبقية الأنواع.

رابعًا: غفل التعريف عن شيء غاية في الأهمية، وهو جوهري في كل الأديان، ذلك الشيء الذي لم يتكلم عنه التعريف هو العباداتُ أو الطقوسُ التعبيريةُ التي لا يخلو منها دين من الأديان، والتي يتقرب بها المتدينون ممن يدينون له.

خامسًا: أن تعريف الشيخ يحتوي على لفظة «أو»، وهذه اللفظة لا يجوز أن يشتمل عليها التعريف الذي نريده والذي قصد إليه الشيخ، فالمناطقة يقولون في هذا السبيل: إن «أو» إن كانت للتشكيك لم يجز إطلاقًا وجودها في التعريفات سواء في الحد أو الرسم، أما لو كانت «أو» للتقسيم، جاز وجودها في غير الحد التام، من الرسم والحد الناقص، أما في الحد التام فلا يجوز وجودها على شكل من الأشكال.

سادسًا: لم يضع التعريف حدًّا واضحًا، أو غير واضح بين الدين والسحر، وذلك الأمر يجب أن يهتم له كل من ينصِّب نفسه لوضع حدٍّ لمفهوم الدين.

أَمَّا الدكتور محمد عبد الله دراز رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيسير في تعريفه للدين على خطة جدلية محكمة، وبطريقة عقلية فذة، فهو يذكر أولًا العناصر الموجودة في الأديان كلها، كل عنصر على انفراد، ثم يجمع هذه العناصر بعد ذلك ليخرج منها التعريف الذي يرتضيه، ولا يَسَعُ مَن يطَّلع على ما كتب الرجل إلا أن يشهد له بالبراعة والذكاء بالإضافة إلى العلم والفقه، فالدكتور قبل أن يضع تعريفه يأخذ في بيان العناصر الجوهرية للدين في نقاط محددة وواضحة، أهمها:

أولًا: الدين يقوم على أساس علاقة بين ذاتٍ وذاتٍ، وليس بين ذاتٍ وفكرةٍ.

ثانيًا: أن هذه الذات ليست مما يقع عليه الحس؛ أي أنها غيبية.

ثالثًا: أن هذه الذات تتصرف بإرادة وحرية واختيار.

رابعًا: أن هذه الذات متصلة بعُبَّادِها، وليست منطوية على نفسها.

خامسًا: أن هذه الذات علوية، سبحانية، قاهرة، غير مقهورة، قوية.

وبعد أن ينتهي الدكتور من ذكر هذه العناصر يقول: «والآن نستطيع أن نضم العناصر الرئيسية التي استخرجناها في ثنايا هذا التحليل، وأن نؤلِّف منها الحد الَّتام لماهية الدين، فنقول: الدين هو الاعتقاد بوجود ذاتٍ أو ذوات غيبيةٍ، علوية، لها شعور واختيار، ولها تصرف وتدبير للشئون التي تعني الإنسان، اعتقادًا من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية في رغبة ورهبة وفي خضوع وتمجيد، وبعبارة موجزة هو: الإيمان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة».

ويستطرد الدكتور قائلًا: «هذا إذا نظرنا إلى الدين من حيث هو حاله نفسية، بمعنى التدين، أما إذا نظرنا إليه من حيث هو حقيقة خارجية فنقول: هو جملة النواميس التي تحدد صفات تلك القوة الإلهية، وجملة القواعد العملية التي

ترسم طريق عبادتها»[١].

هذا هو التعريف الذي ذكره الدكتور محمد عبد الله دراز، ونحن مع تقديرنا العظيم للدكتور العالم، إلا أن لنا على تعريفه ملاحظات نسجلها فيما يلي:

أولًا: أن الدكتور قد قسم المعرَّف إلى أجزاء، ثم عرَّف كل جزء على حدة، فإذا كان الدين يطلق على الناحية النفسية والخارجية، أو يشمل العقائد والعبادات جميعًا، فإن الدكتور قد عرَّف الدين بتعريفٍ ذكر فيه العقائد فقط، وسمَّى هذه حالة نفسية، ثم عرَّفه بتعريف آخر شمل العبادات أو الجزء العملي فيه فقط، وسمى هذه حالة خارجية.

وذلك خطأ- من وجهة نظرنا- وقع فيه المعرِّف؛ لأن من يريد أن يعرِّف أمرًا من الأمور لا يقسِّم هذا الأمر إلى أجزاء، ثم يعرِّف كل جزء منه على حدة، ولكنه يعرف الأمر كله جملةً، ونحن حين نعرِّف الإنسان لا نقسِّمه إلى روح وجسد، ولا إلى قلب وعقل، ولا إلى رأس وجسم، ولا إلى نصف أسفل ونصف أعلى، لنعرِّف كل جزء من هذه على انفراد، وإنما نعرِّف الإنسان بجميع أجزائه ومكوناته جملة واحدة.

ولذا لم يكن للدكتور أن يفرق بين الناحية النفسية والخارجية في الدين؛ فالناحيتان مرتبطتان أشد ارتباط، ولا تنفصم واحدة منهما عن الأخرى، وبخاصة إذا عرفنا أن الجانب الخارجي في الدين لازم من لوازم الجانب النفسي فيه، أو أثر من آثاره التي لا تتخلف.

---

(١) الدين، د. محمد عبد الله دراز (ص٤٤)، ط ١٩٥٢.

ثانيًا: يذكر الدكتور في وصف الذات المعبودة أنها «غيبية»، وهذا قيد لا يصلح لكل الأديان، أي أنه خاص ببعض الأديان دون الآخر، وبذلك يكون التعريف غير جامع، أو غير منعكس، كما يعبر المناطقة عن عنصر الجمع في التعريفات.

فهناك كثير من الأديان الوضعية نجد المعبود فيها شجرًا أو حجرًا أو عجلًا أو بقرة... إلخ، بل إن ذلك شأن غالبية الأديان الوضعية، ولعل الدكتور رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد خلط بين الذات المعبودة وقواها، فالذات في كثير من الأديان الوضعية محسوسة ومتجسدة، ولكن قواها هي التي لا تُحَس ولا تُدْرَك، فهي تتصرف في الكون وفي مصائر الناس بقوى خفية لا يدرك كُنْهَها العابدون.

ثالثًا: أن وصفه الذات بأنها علوية غير مسلَّم أيضًا، وهو مثل قيد الغيبية الذي ناقشناه، فهو إذا كان يريد من ذلك القيد العلوَّ في المنزلة والمكانة فذلك مُسَلَّم، ولكنه واضح في أنه لا يقصد إلى ذلك، بل يقصد أن تلك الذات لا توجد في عالمنا الأرضي، وذلك خطأ، وينسحب عليه كل ما قلنا في قيد الغيبية سالف الذكر.

يَبِينُ مما تقدم أن التعريفين المذكورين لا يصلح واحد منهما تعريفًا للدين- في رأينا.

ولعله قد حان الوقت لنذكر تعريف الدين كما نراه، وكما يتفق مع مفهومنا عن الأديان جميعها، بحيث يكون ذلك التعريف جامعًا لكل الاديان لا يخرج دين من حوزته، مانعًا دخول غير الأديان فيه كالسحر وخلافه من المذاهب العديدة، وهذا ما سنذكره تحت العنوان التالي بحوله تعالى.

تعريف الدين في رأينا

قبل أن نتكلم عن التعريف نحب أن نذكر أوَّلًا عناصره التي يتركب منها، تلك العناصر التي تضم النقاط الجوهرية في كل الأديان على اختلافها.

ونستسمح الدكتور العالم محمد عبد الله دراز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أن نستعير منه بعض العناصر التي ذكرها في ثنايا تعريفه الدين؛ لنجردها من شيء غير صالح، ونضيف إليها شيئًا صالحًا، حتى يخرج التعريف بعد ذلك خاليًا من كل الشوائب التي أُخذت على التعريفين السابقين، والله سبحانه هو المستعان.

والعناصر التي يتركب منها تعريف الدين هي- في رأينا- كما يلي:

أولًا: أن الدين يقوم على أساس علاقة بين ذات وذات أو ذوات، وليس بين ذات وفكرة.

ثانيًا: أن هذه الذات أو الذوات قد تكون محسوسة وقد تكون غير محسوسة، فليس بلازم أن تكون غيبية.

ثالثًا: أن هذه الذات أو الذوات تتصرف في مصائر الناس بقوًى غيبية غير محسوسة.

رابعًا: أن تصرفها ذلك ناتج عن إرادة ومشيئة واختيار.

خامسًا: أن هذه الذات متصلة بالبشر، وليست منطوية عنهم.

سادسًا: أن الإيمان من شأنه أن يدفع المؤمن إلى التوجه إلى هذه الذات أو الذوات بالطاعة والعبادة.

سابعًا: أن هذه العبادة لها قواعد وشروط ونواميس تسير على أساس منها.

هذه هي العناصر الجوهرية في الأديان التي تشملها جميعها، والتي لا يخلو دين عنها، ولا توجد في غير الأديان.

ويحسن أن ننبه إلى أننا حينما وضعنا هذه العناصر فإننا أخذنا في اعتبارنا الكلام عن الأديان الباطلة والأديان الحقة على سواء، وأننا نضع التعريف ليشملها جميعًا، فإذا كنا قد ذكرنا في العناصر أن الدين هو الإيمان بذات أو ذوات، فلعل البعض يعترض على ذلك بأن الأديان الوضعية التي يكون المعبود فيها حجرًا أو خلافه، لا ينطبق عليها أن المعبود فيها هو «ذات»، ولكننا نلفت النظر إلى أننا نتبع في ذلك عقائد المتدينين، وأن أصحاب هذه الديانات يعتقدون أن أحجارهم وأشجارهم التي يعبدونها، إنما هي ذوات تعقل وتدرك وتتصرف.

نستطيع بعد ذلك أن نصوغ تعريفًا على الصورة التي تجمع هذه الخصائص أو العناصر التي ذكرناها، فنقول:

«الدين هو الاعتقاد بوجود ذات أو ذوات لها قوًى غيبية، بها تتصرف في الطبيعة والناس حسب مشيئتها وإرادتها، اعتقادًا يبعث على التوجه إليها بالطاعة والعبادة في رغبة ورهبة، حسب نواميس معينة، وقواعد محددة».

هذا هو التعريف الذي نراه جامعًا للأديان كلها، مانعًا من دخول ما ليس منها في زمرتها.

بقيت بعد ذلك نقوض توجه إلى هذا التعريف، نرى من الواجب علينا- قبل أن نترك المجال- أن نرد عليها وندحضها؛ حتى يسلم لنا تعريفنا الذي وضعناه، والذي عُقِدَ هذا الفصل برمته من أجله.

وهذه النقوض تتلخص في نقضين شهيرين أكثر مَن يعنى بهما أصحاب علم الاجتماع وبعض الفلاسفة، وقد أورد الشيخ مصطفى عبد الرازق النقض الأول منهما وسكت عنه، وكأنه قد رضي به وسلَّم له أو لأصحابه.

النقض الأول: يتلخص في أن بعض الفلاسفة وعلماء الأديان يعارضون تعريف الدين بالكائنات الروحية، أو الذوات الإلهية، أو القوى الغيبية، ولا يرضون أن يشمل تعريف الدين واحدة من هذه كلها؛ محتجين على ذلك بالديانة البوذية القديمة، فإنها لم تكن في بدايتها تعترف بوجود إله، ولم يكن فيها شيء يشير إلى ذلك، وأما «بوذا» فلقد ألَّهه أتباعه من بعد موته بوقت طويل، فالديانة البوذية الصحيحة لم يكن فيها إله أو قوى روحية أو عناصر غيبية.

وهذا الاعتراض ذكره الشيخ مصطفى عبد الرازق رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]، كما ذكره الدكتور أحمد الخشاب[٢]، ويذكره غيرهما من علماء الاجتماع والباحثين.

وردُّنا علىٰ ذلك في نقاط:

أولًا: الاعتراف بوجود كائن مقدس هو المعبود بالنسبة لأصحاب الدين أو للمتدينين أمرٌ جوهري، بل هو أهم الأمور الجوهرية في الدين على الإطلاق، ومن هنا إذا وجد أي نظام لا يعترف بوجود إله أو كائن مقدس فذلك لا يمكن أن يكون دينًا، وإنما هو جدير بأن يكون مذهبًا خلقيًّا لا أكثر.

ثانيًا: يلاحظ أن الدكتور الخشاب الذي نقل هذا الاعتراض اعترف بذلك

---

(١) الدين والوحي والإسلام، لمصطفى عبد الرازق، إصدار مجمع البحوث الإسلامية، تقديم محمود حمدي زقزوق القاهرة، مصر(١٤٣٧هـ) (ص١٦).

(٢) الاجتماع الديني، د. أحمد الخشاب (ص١٧).

حيث يقول: «فالبوذية في الواقع مذهب إلحادي لا يعترف بوجود إله، وإنما يقوم على أسسُ أهمها:

أ- ارتباط الألم بين الأشياء كلها في الوجود.

ب- أن الشهوة- وهي علة الألم- تبدو في كل شيء في الوجود.

جـ- القضاء على الشهوة هو الوسيلة الوحيدة للتخلص من الألم.

د- للقضاء على الشهوة: «لا بد أن يكون سلوك الفرد متصفًا بالاستقامة والتأمُّل والحكمة، والحكمة في نظرهم هي غاية الغايات التي يصل بها الإنسان إلى السعادة أو الخلاص بالموت»[١].

ثالثًا: يتضح من هذه الأسس التي تقوم عليها الديانة البوذية، أنها تنبئ عن مذهب فلسفي أو خلقي وليس عن دين، والمتصفح لما بين القوسين يرى أن هذه العبارة أوضح كثيرًا في المذاهب الخلقية، وأي فرق بين هذه المبادئ ومبادئ الكلبيين في الأخلاق؟

رابعًا: واضح أن أي دين لا يستقيم لا في الواقع ولا في نفوس معتنقيه إلا بالذوات المؤلَّهة المعبودة، ولـمَّا كان المذهب البوذي مذهبًا خلقيًّا بحتًا، ولما كان من القوة والسيطرة على نفوس أفراده بشكل لا يتفق مع المذاهب الخلقية، فقد اتصفت هذه التعاليم بصفة الإلزام حتى صارت دينًا اعتنقه البوذيون، ولم يكن لهذا المذهب الذي تحول من شدة إلزامه وسيطرة تعاليمه على النفوس إلى دين، نقول: لم يكن لهذا المذهب بدّ من إله يعبده أتباعه؛ لذلك لم يستقم أمر البوذيين ولم يقر قرارهم حتى بحثوا عن إلهٍ لهم، ووجدوا ذلك الإله في

---

(١) المصدر السابق (ص١٨).

شخص «بوذا» بعد موته، فألَّهوا «بوذا» حتى يحصلوا على التكامل العقدي، وحتى يتخلصوا من التناقض بين الإلزام القوي في مذهب «بوذا» الخلقي وحاجة الدين إلى إله؛ ذلك أن مذهبهم لما كان فيه الإلزام القوي قَرُبَ من الدين، ولكنه لم يكن دينًا، فصار بين الدين والأخلاق، فلا هو بالأخلاق، ولا هو بالدين، ومن هنا ألَّه أصحابُه «بوذا» حتى يخلصوا من ذلك التناقض، وبذلك تحولت البوذية- التي لم تكن دينًا- إلى دين.

النقض الثاني: وينقله لنا الدكتور أحمد الخشاب فيقول: «... كما أنه ليس من الضروري في الاجتماع أن يكون الشيء المقدس أسمى في المرتبة الوجودية أو القيمة الاعتبارية مما هو غير مقدس، فقد يكون الإنسان أسمى من الإله في بعض المجتمعات؛ إذ إنه كثيرًا ما يتدخل ويفرض سلطانه على الآلهة، ويدفعهم دفعًا إلى إجابة حاجاته، فإذا لم يستجب الإله لرغبات الإنسان تعرَّض لألوان من العقوبة، شأنه في ذلك شأن أي خارج على إرادة المجتمع، فبعض المجتمعات تقذف الآلهة بالحجارة إذا كانت ساكنة في البحيرات استدرارًا للمطر، وكذلك نجد أنه كثيرًا ما يحطِّم العربي البدائي صنمه الذي يعبده إذا رجع من غزواته مغلوبًا على أمره، وفي فصول القحط والمجاعات تلجأ بعض القبائل الوثنية إلى أكل آلهتها إذا كانت من المملكة النباتية أو الحيوانية، كل هذا يدلنا على أن الإله إنما يقوم بوظيفة اجتماعية ويعد مسئولًا عن أدائها، فإذا لم يؤدها على الوجه الذي يرضي الجماعة التي تدين له بالعبادة، وقع تحت العقوبة المادية»[1].

---

(١) الاجتماع الديني، د. أحمد الخشاب (٧٩).

هذا هو الاعتراض الثاني، ونحن نرد عليه أيضًا في نقاط:

أولًا: أن طبيعة التعبد لإله تقتضي بالضرورة أن لَّا يكون المعبود أقل من العباد، ولا يمكن أن يفهم الأمر على غير ذلك.

ثانيًا: أننا نرفض إطلاقًا القول بأن الإنسان يمكن أن يتدخل لفرض رغباته على الإله، ولو أن ذلك كان صحيحًا لما كان الإله إلهًا، ولما كان الإنسان إنسانًا، ولما كان الإنسان بحاجة إلى طقوسه وقرابينه التي يتقرب بها من الإله ويتودد بها إليه؛ حرصًا على رضاه.

ثالثًا: قد يكون ما ظنه أصحاب هذا الاعتراض تدخلًا من الأفراد في شئون الآلهة لفرض رغباتهم عليها لا يعدو أن يكون أسلوبًا من أساليب الدعاء أو التقرب أو إظهار الرغبة، أو هو نتيجة لزيادة قوة الارتباط بين الإله والأفراد الذين يدينون له، ذلك الارتباط الذي ينتج من قوته رفع الكلفة بين الإله والأفراد الذين يعبدونه، وذلك ينتج بدوره نوعًا من التدلُّل على الإله، وهذا قريب مما نراه عند بعض الصوفية الذين يريد الواحد منهم شيئًا من ربه فيقسم على الله أن يفعل كذا، أو نراه يخاطب ربه كما يخاطب المرء شخصًا مثله.

رابعًا: كل الذي ذكره صاحب الاعتراض في معرض التدليل على عقوبة الجماعة أو الأفراد للإله، لا يساعده في فكرته هذه، فأما عن قذف بعض الجماعات آلهتها بالحجارة استدرارًا للمطر فليس ذلك عقابًا، وإنما هو نوع من الطقوس المتبعة التي لا تستجيب الآلهة لطلب الجماعة إلا بها، ودليل ذلك أنك لو طلبت من الجماعة أن تعاقب هذه الآلهة بشيء آخر غير قذف الحجارة، أو أن تقذفها بشيء آخر غير الحجارة ما استجابت لك الجماعة، ولو أن الأمر أمر عقوبة لكانت العقوبة

بغير الحجارة كما هي بها، ولكن الأمر أمر طقوس معينة ومتبعة، وليس في الأمر عقوبة على الإطلاق.

خامسًا: أما عن العربي الذي يحطم صنمه إذا رجع من غزواته مغلوبًا، فالبدوي يفعل ذلك كما يفعله كثير من المتدينين في كل الأديان، فكثيرًا ما يتفوَّه الإنسان بكلمات نابية ضد إلهه في وقت يأسه وبؤسه، حين يعتمد عليه وتكون النتيجة الخذلان، هذا احتمال من احتمالين يصحبان الحالة النفسية لِلّعربيّ حين يحطم صمنه، أما الاحتمال الآخر فقد يحطم العربي صنمه؛ لأنه فقد إيمانه بهذا الصنم إلهًا، واكتشف فجأة أنه ليس إلهًا ولا يصلح لذلك، وأنه كان على خطأ وضلال في تأليهه وعبادته، وكثيرًا ما سمعنا في تاريخ العرب الجاهليين عن أفراد حطموا أصنامهم؛ لأنهم اكتشفوا أن هذه الأصنام لا تضر ولا تنفع، ولا تَسْتَطيع أن تمنع الثعلب أن يبول عليها، كالأعرابي الذي رأى ثعلبًا يبول على صنمه فكسره قائلًا:

أَرَبٌّ يَبُـــولُ الثَّعْلُبـــانُ بِرَأْسِـــهِ لَقَدْ ذَلَّ مَنْ بَالَـتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِـبُ

سادسًا: وأما عن هؤلاء الذين يأكلون آلهتهم من مملكة النبات أو الحيوان، فليس ذلك استهانة بآلهتهم وليس عقابًا لها، كما أنه ليس استحقارًا لشأنها، وإنما هي عقيدتهم التي تقوم على أساس أن هذه النباتات أو الحيوانات ليست هي الآلهة، وإنما هي رموز للآلهة، وذلك شبيه بما كان يحدث عند العرب الجاهليين حين كانوا يصنعون آلهتهم من البلح أو الحلوى حتى إذا جاعوا في سفر أو حضر أكلوها، وهم مؤمنون أنه لا بأس عليهم ولا على آلهتهم من ذلك، ما دام أن هذه الحلوى لا تزيد على أن تكون رمزًا للإله، وما داموا سيصنعون غيرها حين يتيسر لهم الأمر.

وحين نسأل: هل ينتهي أمر الإله أو يفنى حينما يأكل الأنسان ما يرمز إليه من نبات أو حيوان؟ الجواب: بالطبع لا.

وهذا دليل على أن الإنسان لم يأكل الإله نفسه، وإنما- حسب عقيدته- أكل فقط ما يرمز إليه.

وبانتهاء الكلام على هذين الاعتراضين نرى أننا قد أوفينا هذا الموضوع حقه، وأتينا على كل ما يمكن أن يقال فيه حسب ما نستطيع، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلم.

المبحث الثاني

أقسام الدين

- الدين الإلهي.
- الدين الوضعي.
- العوامل الذاتية.
- العوامل الخارجية.
- المذهب.
- الدين بين الوحدة والكثرة.

أقسام الدين

ينقسم الدين بصورته العامة إلىٰ قسمين أساسيين:

القسم الأول: الدين الإلهي

وهو الدين الذي نزل من عند الله- تبارك وتعالى- على أنبيائه ورسله - صلوات الله عليهم أجمعين.

ومن خصائص هذا الدين أنه من صنع الله وحده، فلا يد لإنسان فيه، أيًّا كان ذلك الإنسان، حتى الأنبياء والرسل أنفسهم لا عمل لهم في موضوع الدين المنزل عليهم، فكل ما يأتي به النبي إنما هو من عند الله- تبارك وتعالى-، يتولى تبليغه إلى الناس، دون أن يزيد فيه أو ينقص منه.

وهذا رسول الله يقول عنه ربه سبحانه:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٤].

على ضوء ما تقدم نستطيع أن نعرف الدين الإلهي بأنه:

«وحي أوحاه الله إلى أنبيائه ورسله، ليبلغوه إلى الناس، ليدين الناس به طاعة وعبادة لله رب العالمين».

والدين الإلهي واحد هو الإسلام، أرسل الله به كل رسله وأنبيائه إلى خلقه، وفي إطار هذا الدين الواحد جاءت رسالات الرسل جميعًا: آدم، ومحمد، وَمَنْ بين النبييْن العظيميْن من الأنبياء والرسل- صلوات الله عليهم أجمعين.

القسم الثاني: الدين الوضعي

وهو من وضع البشر، ومن اختراع العقل الإنساني، وعلى هذا فهو ليس وحيًا من عند الله- تبارك وتعالى-، وليس له أنبياء أو رسل؛ ذلك أن مهمة الأنبياء والرسل هي تلقي الوحي عن الله- تبارك وتعالى-، وما دام الدين الوضعي ليس وحيًا من عند الله، فليس ثمة محل للأنبياء أو الرسل.

الفرق بين الدين الإلهي والوضعي: اتضح لنا مما تقدم أن الفرق الجوهري بين الدين الإلهي والدين الوضعي، هو الأصل الذي صدر عنه هذا الدين أو ذاك.

فالدين الإلهي هو الصادر عن الله- تبارك وتعالى-، والداعي إليه هم الأنبياء والرسل- صلوات الله عليهم أجمعين-، الذين هم وسطاء بين الله والناس، يتلقون مراد الله- تبارك وتعالى-، ويبلغونه إلى الناس، وليس للوسطاء أدنى حظ في وضع الدين، ومهمتهم الأساسية إنما هي التبليغ والتوضيح والتبيان فقط، يقول الله- تبارك وتعالى:

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

ويقول لرسوله ﷺ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥].

وحتى مهمتهم هذه، التي هي التبليغ والتبيين، إنما يسيرون فيها على هدًى من أوامر الله، وعلى أسلوب يوضحه لهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

يقول الله- تبارك وتعالى- لرسوله ﷺ:

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤].

ويقول تعالى:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

فالدين الإلهي من عند الله، سواء في جوهره وموضوعه، أو في طريقة عرضه وأسلوب تبليغه.

وأما الدين الوضعي فعلى نقيض ذلك تمامًا، ليس من عند الله، وإنما هو من وضع البشر، في موضوعه وكل ما يتعلق به.

يتضح مما تقدم أن الدين الوضعي هو في حقيقته:

«مذهب إنساني دعا إليه بعض الناس؛ فدان به آخرون».

والدين الوضعي نوعان:

النوع الأول: هو الذي نشأ في حالة البداوة والجهالة لدى الإنسان الذي لم يصله علمٌ من وحي الله تعالى، ولم يدرك رسولًا من رسل الله- صلوات الله عليهم أجمعين-، فبدأ بعبادة الأرواح والأشجار والحيوانات، ثم ترقَّى منها إلى عبادة الظواهر الطبيعية، وقد سبق أن بيَّنَّا ذلك بالتفصيل.

النوع الثاني: أديان وضعية نشأت في مجتمعات متحضرة لها فلسفاتها ومذاهبها، وهذه المجتمعات تنكَّبت طريق الله سبحانه وعارضت رسالاته، فانتشر فيها الشقاء والفساد، فحاول دعاة الإصلاح فيها أن يعالجوا أمراض مجتمعاتهم تلك وأن يقضوا على ما فيها من شقاء وتعاسة وفساد، فأنشأ بعضهم مذاهب ونُظمًا اجتماعية خلقية فلسفية، يحاول بها إصلاح فساد مجتمعه.

وقد ظلَّت هذه المذاهب على صفتها كمذاهب يقصد منها الإصلاح، وإن كانت لا تؤدي إِلَّا إِلى تفاقم الفساد وانتشار الشقاء، ولكن القليل من هذه المذاهب تحول لدى بعض الشعوب في بعض المجتمعات إلى دين وضعي، بمعنى أن بعض هذه المذاهب التي ابتُغي بها الإصلاح قد توفر لها من العوامل الذاتية والخارجية ما جعلها صالحة لأن تتحول لدى أتباعها إلى دين وضعي.

فهذا النوع من الأديان الوضعية قد نشأ- أصلًا- مذهبًا خلقيًّا واجتماعيًّا له فلسفته الخاصة التي يقوم عليها، والتي تستمد دعائمها من البيئة وظروف المجتمع الذي نشأت فيه، ومن ثقافته النوعية، ومن مشاكله التي جاء هذا المذهب علاجًا لها.

والمذاهب التي نشأت علاجًا لمشاكل المجتمعات كثيرة لا تكاد تحصى، ولكن الأديان الوضعية التي نشأت من بين هذه المذاهب قليلة جدًّا، فليس كل مذهب خلقي أو اجتماعي أو فلسفي صالحًا لأن ينشأ عنه دين وضعي؛ ذلك أن المذهب لكي يتحول إلى دين وضعي لا بد أن تتوفر له عوامل معينة، هذه العوامل منها ما هو ذاتي في المذهب نفسه، ومنها ما هو متعلق بظروف الناس الذين نشأ المذهب بينهم.

العوامل الذاتية

أما من حيث العوامل الذاتية في المذهب فمن أهمها:

أن تلمس تعاليمُ المذهب من الناس أدقَّ أحاسيسهم.

وأن تكون هذه التعاليم ذات صلة موضوعية بواقع حياتهم.

وأن تهتم بهذا الواقع فتعالج فيه أهم مشكلاته، وبخاصة ما يتصل بالجانب النفسي للأفراد.

وأن تتصف تعاليمه بالإلزام القوي، وأن تكون تلك التعاليم محددة وحاسمة.

وأن تحتوي على الجزاء ثوابًا وعقابًا، تبشيرًا لمن يسير عليها، وإنذارًا لمن يخالفها.

العوامل الخارجية

هذا فيما يختص بالجانب الذاتي في المذهب.

وأما فيما يختص بأفراد المجتمع الذين نشأ المذهب بينهم، فيجب أن يكون لديهم استعداد لاعتناق هذ المذهب دينًا، وهذا الاستعداد ينشأ نتيجة الخواء العقدي، والفراغ الديني لدى هؤلاء الأفراد، ومن المعروف أن الدين غريزة من أقوى الغرائز لدى الإنسان، وأن الإنسان لا يمكن أن يحيا سويًّا مستقرًّا دون أن يشبع هذه الغريزة، فإذا ما صادف مذهبٌ من المذاهب التي توافرت فيها العوامل الذاتية التي أوضحناها ثم صادف فراغًا عقديًّا لدى فئة من الناس، فإنه يتحول لديهم إلى دين يعتنقونه، ويكون العامل الأكبر في اعتناقهم إياه ليس صلاحه كدين، بقدر ما هو حاجتهم إلى ما يشبع غريزة التدين عندهم، وذلك كإنسان اشتد به الظمأ، ولم يجدْ ما يطفئ غلَّته إلا ماء قد فسد منه اللون والطعم والرائحة جميعًا، فهو يتجرعه ولا يكاد يسيغه، وهو حين يتجرعه لا يفعل ذلك لصلاح الماء، ولكن لحاجته الملحَّة إلى أن يطفئ ظمأه، فاعتناق الناس الأديان الوضعية نشأ أساسًا نتيجة افتقاد الناس الدين الإلهي النقي الصالح الذي يملأ هذا الجانب الأهم من جوانب حياتهم.

وتاريخ الأديان شاهد صدق على ذلك، فلم ينشأ دينٌ وضعي أبدًا في صحوة من الدين الإلهي، وإنما كانت تنشأ هذه الأديان إما على فترة من الدين الإلهي،

وإما في فترات ضعف هذا الدين الإلهي نتيجة تحريف الإنسان له، وتبديله إياه.

لكل هذا ومصداقًا له نرى أن الأديان الوضعية الموجودة الآن قد نشأت كلها قبل الإسلام، وأنه منذ بعث محمد ﷺ بالإسلام، لم ينشأ دين وضعي واحد في أية بيئة ينتشر فيها الإسلام، بل لقد توقف انتشار هذه الأديان، وانزوت في كهوفها؛ ذلك أن الإسلام هو دين الفطرة الذي تميل إليه النفس بمقتضى فطرتها وطبيعتها، هذا بالإضافة إلى أن الله- تبارك وتعالى- قد حفظ الإسلام من التغيير والتبديل؛ لهذا ولأن الإسلام هو دين الله الذي تجد فيه كل نفس ما يتفق وما فطرها الله عليه، فإن الأديان الوضعية قد أضحت في المجتمعات الإسلامية تاريخًا يُدرس، وعلامة يتطلع إليها الدراسون فيلمحون فيها صورًا من انحطاط العقل البشري في بعض مراحله، وإن كانت هذه الصورة تقوم دليلًا من أقوى الأدلة على أصالة دافع التدين في فطرة الإنسان وطبيعته، حتى ليبحث عنه في متاهات الخطأ حين لا يسعفه ما يهديه إلى طريق الصواب.

المذهب

تكلمنا فيما سبق عن الدين بقسميه الإلهي والوضعي، وننتقل الآن إلى الكلام عن المذهب والمدرسة، والكلام عن المذاهب أمر هام وضروري لمعرفة الفارق بين الأديان بقسميها، وما يشيع في المجتمعات من نزعات ومذاهب، منها ما هو اجتماعي، أو سياسي، أو اقتصادي إلى آخر هذه المذاهب والنزعات التي تشارك الأديان في توجيه حياة الناس والتحكُّم في سلوكهم وكل ما يصدر عنهم من تصرفات، وهذا هو السبب الذي جعلنا نقرن الكلام عن الأديان بالكلام عن المذاهب؛ من حيث إن تصرفات الناس وسلوكيَّاتِهم إنما تصدر متأثِّرة بالمذاهب والأديان جميعًا، فكان احتمال الخلط بين هذه وتلك قويًّا؛ ولذلك رأينا أن نتكلم عن الفارق بينهما منعًا لذلك الخلط.

ولكي نعرف الفرق بين الأديان والمذاهب، يجب أن ندرس ما يحدث عندما يقع الإنسان على فكرة معينة تَعرِض له، أو تُعرض عليه.

والذي يحدث أن الفكرة عندما تعرض للإنسان تحلُّ منه مباشرة في مجال العقل، وهذه المرحلة التي تحلُّ فيها الأفكار في عقل الإنسان مرحلة عامة، يمر بها كل ما يعرض للإنسان من أفكار، سواء في ذلك ما يتعلق بالأديان، وما يتعلق بالمذاهب والنَّزعات.

وبعد هذه المرحلة العامة، تأتي المرحلة الخاصة التي فيها تتحول الفكرة

إلى عقيدة، وتحلُّ من الإنسان قلبَه بعد عقله.

ونزيد الأمر إيضاحًا، فنقول: إن الإنسان حين تعرض له فكرة فإنه ينزلها في عقله منزلة البحث والتمحيص، ثم يديرها بين الرفض والقبول، وحين يقتنع الإنسان بالفكرة، فإنه يلتزم بها، ويتخذها مذهبًا له، يسير عليه، ويتصرف انطلاقًا منه. وذلك هو المذهب.

أما إذا توافر للفكرة أمر ثان فوق مجرد الاقتناع الفكري، وهو كونها تعالج مسائل ما وراء الطبيعة، كالخلق والإحياء والموت والإفناء، والبعث والجزاء، وما هو من هذا القبيل، فإن الفكرة هنا تنتقل إلى مرحلة جديدة، فتحلُّ من الإنسان في مجال القلب بعد أن كانت منه في مجال العقل، وبدلًا من أن تظل فكرة في مجال العقل تصير عقيدة في مجال القلب، وهنا تكون الفكرة قد تحوَّلت إلى دين.

فالمذهب إذن هو فكرة عرضت للإنسان تعالج أمرًا سياسيًّا، أو اقتصاديًّا، أو اجتماعيًّا، فاقتنع بها الإنسان وسار عليها، وعالج على أساس منها ما يعرض له من أمور سياسية، أو اقتصادية، أو اجتماعية، وذلك مثل المذاهب الرأسمالية، والاشتراكية، والشيوعية.

أما الدين فهو في أساسه فكرة، أو جملة أفكار، تعالج بالإضافة إلى النواحي التي تُعَالِجُها المذاهب، مسائلَ ما وراء الطبيعة كالخلق والإحياء، والبعث والجزاء، وهذه الأفكار تقبَّلها الإنسان واقتنع بها وحلَّت منه في قلبه بعد عقله، فأضحت عقيدةً محلها القلب، بعد أن كانت- أولًا- فكرة محلها العقل.

وكل الأديان على ذلك، صحيحها وباطلها على سواء.

وعندما عرض سيدنا رسول الله ﷺ الإسلام على أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإنما كان يعرض عليه أفكارًا محددة، تعالج أمورًا معينة، ولا ريب أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَزَنَ هذه الأفكار بعقله، واقتنع بها لاعتبارات عنده توجب الاقتناع وتؤدي إلى اليقين، ثم تحولت هذه الأفكار من عقله إلى عقيدة راسخة في قلبه.

من هنا يتضح لنا أن الفرق الجوهري بين الأديان والمذاهب، أن الدين عقيدة راسخة في القلب، فهو بدأ فكرة محلها العقل، ثم تخطى هذه المرحلة إلى مرحلة أعمق وأرسخ حين تحولت من فكرة محلها العقل، إلى عقيدة محلها القلب.

أما المذهب فهو فكرة وقفت عند حد الاقتناع العقلي بها، ولم تتخطَّ هذه المرحلة.

الدين بين الوحدة والكثرة

أشرنا فيما سبق إلى أن الدين في عمومه ينقسم إلى قسمين:

١- دين إلهي.

٢- دين وضعي.

ونتناول هنا الكلام عن هذين القسمين من حيث الوحدة والكثرة.

فالدين الوضعي يتعدد ويتكثر، وذلك أمر طبعي، فالدين الوضعي نشأ أساسًا نتيجة أفكار بشرية، فهو ابن العقل الإنساني، والعقل في الإنسان يختلف من فرد إلى فرد، ومن أمة إلى أمة، ويختلف من حيث الزمان، ومن حيث المكان، فكان من الطبعي أن تختلف معطياته من مذاهب وأفكار وآراء، ومن أديان وضعية.

أما دين الله فهو صادر من عند الله الواحد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لذا كان من الطبعي أن يكون هذا الدين واحدًا، وإن كثر المرسلون به، وتعدَّد الداعون إليه.

هذا الدين الواحد هو الإسلام.

وسوف نتكلم عن دين الله الحق في موضعه- بحول الله تعالى- بعد أن نتكلم عن الدين الوضعي ونشأته.

المَبْحَثُ الثَّالِثُ

فطرية التدين

- معيار تقسيم الدوافع الإنسانية.
- التدين غريزي أو غير غريزي.
- الدافع الديني فتح مجال العلم والأخلاق والآداب.
- الردّ على الطعون التي وجهت إلى التدين.

فطرية التدين

إن العلماء المعنيِّين بالبحث في النفس البشرية قد قسموا دوافع الإنسان إلى نوعين:

الأول: دوافع أصيلة في الإنسان لا يخلو عنها في زمان أو مكان، وهذا النوع من الدوافع يولد مع الإنسان، وهو واحد في جميع بنيه، ولا يتأثر في حقيقته باختلاف البيئات والأقاليم، ولا باختلاف الأوقات والأزمنة، وإنما يأتي الاختلاف فيه بين الأفراد في مظهر هذه الدوافع وفيما يترجم عنها.

وأثر هذه الدوافع يأتي قسرًا وقهرًا، فلا يملك الإنسان حياله دفعًا، ولا يستطيع له منعًا، وقد اصطلح على تسمية هذا النوع باسم الغرائز.

الثاني: دوافع فرعية أو غير أصيلة في الإنسان.

وهذه قد يخلو الإنسان عنها وقد يتصف بها، وقد يخلو عنها في وقت ويتصف بها في وقت سواه.

وهي تخضع في وجودها أو عدمه لعامل الزمان والمكان والظروف الحياتية كلها من جانب، ولعامل المزاج الشخصي والتكوين النفسي من جانب آخر.

وأثر هذه الدوافع- إن وجدت- يكون اختياريَّ الوقوع، فلا يصل إلى الحتمية أو الضرورية، وإن كان من الصعب أحيانًا مقاومته، وهذه الدوافع يمكن التخلي عنها بعد التحلي بها، وقد يكون في ذلك صعوبة تختلف قوةً وضعفًا باختلاف هذه الدوافع، وباختلاف قدرة الإنسان في تحكمه في دوافعه المكتسبة.

فقد يكتسب الإنسان عادة التدخين مثلًا، حتى يصبح ذلك دافعًا من دوافعه تصطبغ به كثيرٌ من تصرفاته، ويظهر أثره على غير قليل من أفعاله، ولكن أثر هذا الدافع ليس ضروريًّا ولا حتميًّا.

وقد يستطيع المرء بقليل أو كثير من الجهد والعناء والضغط على أعصابه ومقاومة شهواته أن يجتثَّ نهائيًّا هذا الدافع من نفسه حتى يصبح وكأنه لم يكن.

وقد اتفق العلماء على تسمية هذا النوع من الدوافع باسم «الدوافع المكتسبة».

من هذا العرض الموجز للدوافع الإنسانية التي تتشكل بها تصرفات الإنسان في هذه الحياة وتصطبغ بها وتقوم على أساس منها، يتضح لنا أن الدوافع من النوع الأول لها الشأن كله في توجيه حياة الإنسان، بل لها الفضل في استمرار هذه الحياة، وتنميتها وترقيتها وتطورها، وأن كل دافع منها يختص بجانب من جوانب الحياة الإنسانية، ويقوم عليها وكأنه الحارس الأمين يعنى بأداء دوره في حفظ ما اؤتمن عليه من جوانب هذه الحياة الإنسانية المعقدة، ومن مجموع هذه الأدوار التي يؤديها هؤلاء الحُرَّاس الأمناء يتكون الموطن الأمين الذي تلوذ به النفس الإنسانية وتزاول مهامها الكبرى فيه، وتؤدي رسالتها الخالدة التي لها خلقت.

فليست هناك غريزة من هذه الغرائز إلا وقد قامت على جانب مهم من جوانب هذه الحياة الإنسانية.

وبالمقابلة؛ فليس هناك أمر مهم في حياة الإنسان إلا وهو واقع تحت اختصاص غريزة أو أكثر من هذه الغرائز.

وهذا يعني أن كل أمر يرجع إلى الغريزة، أو إلى دافع من الدوافع الأصيلة

في النفس الإنسانية فهو أمر مهم، وذو شأن عظيم في حياة الإنسان.

يأتي بعد ذلك سؤال:

على أي أساس تقسَّم الدوافع إلى أصيلة وغير أصيلة، أو: ما المعيار الذي قام على أساسه تقسيم الدوافع الإنسانية إلى غرائز ودوافع مكتسبة - في نظرنا؟

لقد قام هذا التقسيم - في نظرنا - على أسس ثلاثة:

تاريخ وجود الدافع.

أهمية الأثر، أو الآثار التي تترتب عليه.

مدى حتمية هذه الآثار وضرورتها.

والأسس الثلاثة بينها تلازم طبعي، فكلما كان الدافع قديمًا كان أثره ضروريًّا وهامًّا، والعكس صحيح.

وكلما كان الدافع حديثًا أو مكتَسبًا كان أثره قليل الأهمية غير ضروري ولا حتمي.

ولقد وجد العلماء الباحثون في دوافع الإنسان أن تاريخ وجود الدوافع الأصيلة عنده- أو الغرائز كما سميت أو أطلق عليها- يرجع إلى تاريخ وجود الإنسان نفسه، فهذه الدوافع قديمة قدم الإنسان، وُجدت بوجوده ثم صَاحَبته في رحلته عبر تاريخه الطويل، ولقد وجد العلماء أيضًا أن هذه الدوافع ثابتة ودائمة، ولا تتغير في حقيقتها، وإن كانت قد تهذبت أساليب التعبير عنها، وتطورت وسائل إشباعها.

فدافع الجوع في الإنسان هو نفس الدافع من قديم الزمان إلى حديثه إلى آخر الزمان، لم يتغير فيه شيء على الإطلاق.

ومتى غفل الإنسان عن الأكل مدة كافية لأن تفرغ معدته أحسَّ بأنياب الجوع الحادة تنهش أعصابه، وتقلق سكونه، نفس الإحساس الذي كان يحسه أجداده الأولون، لم يتغير أو يتحول، ولكن وسائل إشباعه، وسبل التعبير عنه هي التي تغيرت في ظاهرها، وإن كانت النتيجة النهائية واحدة على كل حال.

فالإنسان الأول كان يستخدم الناب والظفر في مباراة لإشباع دافع الجوع وإسْكاته، وكانت هذه المباراة لا تخضع لشيء مما نسميه الآن بآداب المائدة، بل كانت تتسم بما نطلق عليه اسم الهمجية.

أما إنسان العصر الحديث فهو مهذب وراق ومتحضر، يستخدم الملعقة والسكين في عملية رقيقة ومهذبة لإشباع دافع الجوع، يغلب عليها أن تكون مباراة في فنون الأدب واللياقة والذوق الرفيع.

وبعد هذا التمهيد يأتي السؤال الذي عقد هذا المبحث للإجابة عليه وهو: هل التدين في الإنسان غرزي أو غير غرزي؟

وبمعنًى آخر:

هل الدافع إلى التدين في الإنسان دافع أصيل بحيث يكون أثره ضروريًّا وحتميًّا؟ أو هو دافع كسبي وغير أصيل، بحيث يمكن أن يتخلف أثره؟

و بمعنًى أكثر وضوحًا: هل وُجد الإنسان وفي طبيعته التدين بحيث لا يمكن أن يوجد إلا متدينًا، كما لا يمكن أن يوجد إلا طاعمًا شاربًا؟

أو أن التدين صفة اكتسبها الإنسان تحت بعض الظروف الخاصة التي لا تتوافر للكل، وقد تتوفر للبعض، فهو كعادة التدخين مثلًا.

وعلى هذا يكون بين الناس المتدين وغير المتدين، كما أن من بيهم

المدخِّن وغير المدخِّن؟

إن الإجابة على هذا السؤال أو هذه الأسئلة تقتضينا أن نعرض صفة التدين على هذه الأسس الثلاثة المتقدمة، وهي الموازين التي وضعناها لنفصل بها بين ما هو أصيل من الدوافع وما هو غير أصيل، ولنميز بها الغرائز التي لا يتخلف أثرها في الإنسان من الدوافع المكتسبة التي لا يستمر لها أثر ولا يثبت.

وإذن فنحن سنتناول بالكلام: تاريخ التدين مع الإنسان، وهل هو قديم؟ ومدى هذه الأقدمية، حتمية التدين وضرورته، ومدى هذه الحتمية والضرورة، وأهمية التدين للإنسان، ومدى هذه الأهمية.

إن علماء المقابلة بين الأديان قد أجمعوا على أن العقيدة الدينية قديمة قدم الإنسان، وأن تاريخ وجودها مساوق لتاريخ وجود الإنسان نفسه، بحيث يكون من الصعوبة التي تبلغ حد الاستحالة أن نفرق بين تاريخ الإنسان وتاريخ التدين أو الاعتقاد.

وإن الناظر في تاريخ الإنسان على ظهر هذا الكوكب لا يكاد يجد فترة من الفترات كان فيها الإنسان عاطلًا من حِلْيَة الدين أو العقيدة، أيًّا كان الشكل الذي ظهر عليه ذلك الدين أو المظهر الذي ترجم عنه.

ومن ثَمَّ فلقد أصبح التراثُ الدينيُّ لدى الشعوب القديمة سِمَةً وعلامةً اعتمد عليها علماء الحضارات، كدليل صادق، وشاهد لا يكذب في الحكم على هذه الشعوب من حيث الرقي والتقدم أو الانحطاط والتخلف، ومن حيث التقارب والتماثل أو الاختلاف والتباعد بين شعب وآخر من هذه الشعوب في الثقافة والحضارة والفكر، وسبل المعيشة والظروف الحياتية جملة.

ولم يكن ذلك إلا لأن هؤلاء العلماء قد وصلوا بعد بحث وتمحيص في تاريخ الإنسان إلى أن التدين وُجد منذ وُجد الإنسان نفسه.

فهناك إجماع كامل على أن التدين صفة من الصفات التي لازمت الإنسان منذ يومه الأول على هذه الأرض.

ولقد اكتشف علماء الحضارات كثيرًا من الآثار القديمة التي خلفها الإنسان القديم، ولقد شملت هذه الآثار مناطق كثيرة من العالم، هي المناطق التي كانت يشغلها الإنسان الأول في بداية وجوده، ومع الاختلاف الكبير الذي اشتملت عليه المكتشفات بين بيئة وبيئة، وإقليم وإقليم، فلقد كانت ظاهرة التدين هي القاسم المشترك الذي جمع بين كل هذه الآثار على اختلافها وتباينها وتنافسها أحيانًا.

وفي هذا يقول الأستاذ العقاد: «ولقد اتفق علماء المقابلة بين الأديان على تأصُّل العقيدة الدينية في طبائع بني الإنسان من أقدم أزمنة التاريخ»[١].

وإذن؛ فالتدين دافع قديم ساوق تاريخُ وجودِه تاريخَ وجودِ الإنسان، وشواهدُ التاريخ شاهدةٌ على ذلك ومؤيدة له، وفي ذلك يقول الأستاذ العقاد أيضًا: «حق لا يقبل المراء أن الحاسَّة الدينية بعيدة الغور في طبيعة الإنسان، وحقٌّ لا يقبل المراء أن الإنسان يجب أن يؤمن، ولا يستقر في هذه العوالم بغير إيمان»[٢].

و إذا كانت العقيدة الدينية قديمة وخالدة، فإنها كذلك حتمية وضرورية، ولا يمكن لإنسان خلقه الله وأودع فيه عقلًا يفكر، وقلبًا يعي، أن يحيا بلا عقيدة دينية يغرق فيها إحساسه بالخوف والقلق، وإحساسه بالوحدة وسط هذا الكون

---

(١) الله، لعباس العقاد، (ص٩)، ط٢، دار المعارف، ١٩٤٩م.

(٢) الله، لعباس العقاد، (ص٨).

الفسيح الأنحاء الواسع الأرجاء، الذي يشعر فيه الإنسان بضآلة شأنه وتفاهة خطره، كذرَّة من الرمال وسط متاهة من الصحراء شاسعة، أو كقطرة وسط بحيرة من المياه واسعة، هذا الإحساس الذي لا يقاومه، ولا يحد من خطره وقوته إلا العقيدة الدينية، فهي وحدها القادرة على أن تقيم بين الإنسان وبين الكون الذي يعيش فيه الصلة القوية، والرابطة المتينة التي تجعل من الإنسان مركز الكون ومحوره الذي عليه يدور، وبه يعمل، ومنه يستمد كل قيمة.

ولقد سبق أن قرَّرنا قِدم العقيدة الدينية وعراقتها، وأن وجودها ارتبط بوجود الإنسان.

ونضيف هنا أن الإنسان الذي اعتصم بحبل العقيدة الدينية منذ وجوده قد ظل طيلة تاريخه معتصمًا به، فلم يفلته يومًا، ولم ينفصم عن عُرَاهُ لحظة.

وقد اتفق الباحثون في الأديان جميعًا على أن الإنسان لم يَخْلُ تاريخه قط من عقيدة دينية، أيًّا كان شأن هذه العقيدة من الهدى أو الضلال أو الرشد أو الغي، والصواب أو الخطأ.

وتلك فطرة فطر الله الناس عليها، وصبغة صبغهم بها، لا فكاك لهم منها، ولا شذوذ عنها، سنة الله.

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا﴾ [فاطر: ٤٣].

وإذا كان الإنسان مُكَوَّنًا من جسد وروح، وكان الجسد يحتاج إلى غذاء، وغذاؤه المطعومات والمشروبات، فكذلك الروح تحتاج إلى غذاء، وغذاؤها أنواع المعارف التي ترتاح لها وتطمئن إليها وتجد استقرارها فيها، وليس يجمع كل ذلك إلا المعرفة الدينية التي يؤدي إليها التديُّن أو الاعتقاد.

ولقد وُجد الإنسان على ظهر هذه الأرض يجهل الكثير ولا يعرف إلا القليل، فأخذ يتحسس طريقه في هذا العالم، ويتلمس سبيله في هذه الحياة، ويحاول التعرف على ما حوله، فعرف أمورًا وغلقت دونه أبواب المعرفة في أمور أخرى.

ولقد أحس بنفسه وسط هذا العالم ضعيفًا ووحيدًا، تتحداه عناصر الطبيعة القاسية المزعجة، فهناك الرعود والبروق، وهناك السحب والأمطار، وهناك الرياح والعواصف، والضوء والظلمة، والشمس والقمر والنجوم والكواكب، إلى غير ذلك من الظواهر الطَّبعِيَّة التي كانت حياته تتوقف عليها، وكان يجهل كل شيء عنها.

وكذلك رأى الإنسان الأول فريقًا ممن حوله يصحُّ وآخر يمرض، وثالثًا يغتني ورابعًا يفتقر، وخامسًا يقوى وسادسًا يضعف، وسابعًا يولد وثامنًا يموت، إلى غير ذلك من الأحوال المتغيرة التي تطرأ على الإنسان وتستغرق حياته من مبتدئها إلى منتهاها.

ولقد حاول الإنسان أن يفسر هذه الظواهر وأن يرد ما يحدث حوله إلى أسباب مقنعة ومعقولة، ولكنه وقف حائرًا لا يجد في حصيلته ما يعينه على تفسير كل هذا أو تعليله.

ولقد كان الإنسان جديرًا بأن يصل إلى الحقيقة لو أنها تبسطت لعقله، أو لو أن عقله كمل حتى أدركها، ولكن لحكمة يعلمها الله، قصر العقل وجلَّت الحقيقة، فلا هو أدركها ولا هي أدركته، وبذلك خُلق في الإنسان قوة التخيل التي امتاز بها عن الحيوان، فالحيوان جامد القريحة متيبِّس الخيال، ولكن

الإنسان- لما خلق له- امتنعت عليه الحقيقة، فالتمس الخيال الذي أمدَّه بحلول لمسائله، وتفسيرات للكَون من حوله، وكان من مجموع هذه الحلول وتلك التفسيرات عقائد هذا الإنسان ودياناته الوضعية.

فالإنسان يواجهه أسئلة كثيرة، وهو- لا شك- يلتمس الإجابة عليها إن لم يكن من الحقيقة، فمن خياله الخصب الممتاز في جنس من البشر عنه في جنس آخر، فتعددت العقائد، وتكثَّرت الملل، وتباينت النِّحل؛ نتيجة لذلك التمايز، وإن كانت كلها في الواقع لا تعدو أن تكون تثبيطًا لما في النفس من شك وحيرة وفضول.

فالعقيدة الدينية من أي النواحي أتيتها وجدتها حتمية وضرورية، ولا يخلو عنها الإنسان في زمان أو مكان.

وإن من أكبر الأدلة وأقواها على حتمية العقيدة الدينية وضرورتها، أن هؤلاء الذين يحاولون التخلص منها والانفكاك عنها قد باءت كل محاولتهم بالفشل.

وبيننا الآن شعوب تحاول أن تتملص من العقيدة بكل ما أوتيت من قوة الإلحاد التي خلفتها حضارة القرن العشرين، وظاهَرَتها على ذلك المكتشفات الحديثة، والمخترعات العلمية، بأقمارها وصواريخها، ومع ذلك فهي لا تستطيع عن التديُّن فكاكًا ولا من سلطانه انفلاتًا.

وإننا لنرى شَعْبًا كالشعب السوفيتي الذي ذهب في الإلحاد والتنكُّر للأديان- على اختلافها- مذهبًا لم يسبق إليه، قد ظن أنه بتنكره للأديان، وحربه إياها، وشنه حرب الدعايات ضدها، قد قضى عليها في نفسه، وهو حقيق بالقضاء عليها في نفوس الآخرين، وأنه قد انتهى من دافع التديُّن إلى الأبد، ولكن الحقيقة غير ذلك تمامًا.

فهو لم ينته من هذا الدافع، وإن كان قد قضى على أثره السوي أو على الترجمة السليمة التي تعبِّر عنه تعبيرًا أمينًا، وكل ما فعله هذا الشعب أنه سد الطريق المستقيم أمام الغريزة الدينية، وبذلك أعاق دافع الاعتقاد الأصيل في الإنسان عن التعبير عن نفسه بطريقة سليمة وبأسلوب سوي، وبذلك وجه هذا الدافع وجهة منحرفة، ودفعه إلى التعبير عن نفسه في صور مشوهة وممسوخة.

إن النهر حين تزخر بالمياه منابعه، وتفيض بها موارده، فإنه يندفع في مجراه الطبعي في قوة وحيوية ونشاط، فإذا ما أقمنا العراقيل والسدود أمامه فإننا بذلك لا نلغيه من الوجود، ولا نقذفه في هُوَّة العدم، وإنما ندفعه دفعًا إلى الانحراف عن مجراه الطبعي المستقيم إلى مجارٍ أخرى مشوَّهة ومعوجَّة يصرف فيها طاقته الجبارة وحمله المندفع.

وهذا ما قد حدث تمامًا لغريزة التدين لدى الشعوب الملحدة المارقة.

فلقد عادت التدينَ وحاربت دافعَه، وبذلك وضعت العراقيل وأقامت المعوقات أمام هذا الدافع القوي الذي لا بد له من مصرف يصرف فيه طاقته الجبارة التي لا تفنى ولا تموت، وبذلك- أيضًا- دفعت هذه الطاقة إلى أن تعبر عن نفسها بأسلوب مُشَوَّه وممسوخ.

إن هذا الشعب وقد رفض الإيمان بالأديان على اختلافها، فلقد كان لا بد له من مصرف يصرف فيه طاقته الدينية ودافع الاعتقاد عنده، ومِن ثَم فقد راح يضفي على فلاسفة الشيوعية من الإجلال والقداسة ما كان جديرًا أن يضفيه على الآلهة لو أنه اتجه بهذه الغريزة وجهتها الصحيحة، وراح يؤمن بزعمائه إيمانه بالأنبياء والقديسين، واستبدل الأناشيد الدينية التي تمجد الوطن

والزعماء بالأوراد والترتيلات التي كان يقوم بها في الكنائس ودور العبادة، وأخذ يتلو ويعيد في كتابات زعمائه وأفكار فلاسفته ويفسر فيها ويؤول، كما يقرأ المتدينون كتب أديانهم ويفسرون ويؤولون المقدس من تشريعات أديانهم.

ونأتي بعد ذلك إلى الدعامة الثالثة التي يقوم عليها استنادنا في تقرير أصالة دافع التدين والاعتقاد في طبع الإنسان وجبلته، ونعني بهذه الدعامة: أهمية التدين للإنسان في حياته الدنيا قبل الأخرى، ومدى هذه الأهمية.

لقد وُجد الإنسان في هذه الحياة يضغط على أعصابه الإحساسُ بالضياع والوحدة وضآلة الشأن.

وكان هذا الإحساس- بحق- هو الخطر الأول والأكبر الذي واجه الإنسان في بداية مزاولته للحياة على ظهر هذا الكوكب، فكاد يقضي على ثقته في نفسه وعلى أمنه واستقراره.

وتحركت في الإنسان غريزة التدين والاعتقاد.

وكان التدين هو العلاج الوحيد والحاسم الذي رد للإنسان ثقته في نفسه ورد إليه أمنه واستقراره، وزحزح من نفسه كابوس القلق والاضطراب؛ لأن التدين ربط الإنسان بالوجود من حوله، وأشعره بأنه ليس وحيدًا في هذا العالم، ورفع عن كاهله الشعور بالضياع والضعف، حين جعله مركز هذا العالم ومحوره الذي عليه يدور وبه يعمل، ومنه يستمد كل قيمة.

ومن حين تديَّن الإنسانُ شعر بقيمته وأهميته واتصاله بهذا الوجود، وأنه ليس ذرة من الرمال أو قطرة من المياه، وكانت هذه وحدها يدًا كبيرة تُحتسب ثقلًا في ميزان التدين.

فمن هذا الشعور بالثقة والأهمية سار الإنسان في حياته على ظهر الأرض بخطًى ثابتة وواثقة؛ لأنها خُطَى إنسان آمن بأن له مكانًا في هذا الوجود، وأنه لا يقف فيه وحيدًا، وأن له رسالة وغاية، وأنه مهم وله خطره وثقله في هذا العالم.

ومن هذا المنطلق كان النصر حليف هذا الإنسان على كل العقبات التي قابلته في رحلته الطويلة، يحرز انتصارًا وراء انتصار، حتى كان ذلك الصرح الشامخ من الحضارة المادية والثقافة الروحية والمعنوية، هذا الصرح الذي يدين بوجوده وشموخه لتدين الإنسان واعتقاده.

والتدين هو القنطرة الكبرى التي عبر عليها الكائن البشري من عدوة الحيوان إلى عدوة الإنسان.

فالحيوان يسعى في حاجته من الطعام والشراب والشهوة، والإنسان كذلك يسعى في حاجته من الطعام والشراب والشهوة، أو هو يسعى في شهوتي البطن والفرج وبهما حب البقاء وحفظ النوع، فالإنسان بهذه الصفة لم يتميز كثيرًا عن الحيوان؛ فهو نوع من أنواعه وفصيل من فصائله.

والعقل الذي امتاز به عن الحيوان لن يحمل له رفعة، ولن يكسبه سموًّا؛ لأنه- والحالة هذه- سيحول عقله إلى آلة يستغلها في أغراض المطعم والمشرب والمشتهى، أو ما هو من ذلك بسبيل مقيم.

فالإنسان بعقله يتوجه بطبيعته ويندفع بغريزته، ويسرح في شهوته ويسعى في نزواته (أرض خرجت من الأرض، وتضرب الأرض، ثم تعود إلى أمها... الأرض) فهو- لكي يرتفع عن هذه الوهدة- لا شك أنه في حاجة ماسة إلى قِيم عُليا، ومُثُل سامية، وأهداف خالدة، يسعى في سبيلها، ويكمل نفسه بها، ويضفي

على هذا الجسد الفاني مسحة من روح الخلود، ولم يكن سوى الدِّين عقارًا يستطيع أن يمده بالعلاج المطلوب.

وكان حقًّا ما قلنا أولًا: إن التدين هو القنطرة الكبرى التي عبر عليها الكائن البشري من عدوة الحيوان إلى عدوة الإنسان.

وإذا كان العقل قد ارتفع بالإنسان درجة عن درك الحيوان الأعجم؛ فإن الدين قد ارتفع بالإنسان العاقل درجات عن عالم الذين يهيمون في ظلمات الإلحاد والزندقة.

وإلى التديُّن يرجع الفضل الأول والأكبر، بل الفضل كله في اكتشاف الإنسان عالم ما وراء المادة أو عالم ما وراء الحس واللمس.

فلقد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن يعترف إلا بما يحس ويلمس، وكان إذا فكَّر يفكر لمسًا، أو يفكر حسيًّا، فكان مرتبطًا بالحس حتى في تفكيره، وكان العقل- آنئذٍ- أسير الحس وأسير أوهامه.

وقد كان يمكن أن يظل الإنسان على هذه الجهالة التي ما بعدها جهالة، لولا أن تداركه رحمة من ربه في صورة دافع التدين وغريزة الاعتقاد، فوضع هذا الدافع يده على عالم ما وراء الحس وما وراء المادة، وكشف له أن ثمة عالمًا آخر لا تدركه الأبصار، ولا تلمسه اللوامس، ولا تحسه الحواس، وبذلك تسنى له أن يفتح لعقله منفذًا إلى عالم ما وراء المادة المطبقة على حسِّه وفكره.

وفضل الغريزة الدنية في هذا المجال- مجال اكتشاف عالم ما وراء المادة- لا يقوم على أساس من التدين فحسب، ولكنه يقوم على أسس كثيرة وعديدة من المجالات التي انفتحت أمامه عن هذا الطريق في العلم والأخلاق والقيم

والمثل وتربية الضمير.

وعلى كل هذه الحالات، فإن الدافع الديني لدى الإنسان فتح أمامه- بالإضافة إلى مجال الاعتقاد والتدين- مجال العلم والأخلاق والآداب الإنسانية على سعتها وكثرتها.

ولو أن الإنسان حُرم هذا الدافع الأصيل في كيانه وطبيعته لما خسر التدين والاعتقاد فحسب، بل لخسر مع ذلك العلم والأخلاق والآداب الإنسانية وكل ما يفخر به الإنسان الآن- وقبل الآن- من ثقافة وحضارة ومدنية، ولجهل كل ما يقال الآن عن الحق والخير والجمال.

فالدافع الديني أو الغريزة الدينية لم تكن فاتحة عهد ونابتة خير للدين والعقيدة فحسب، وإنما كانت فتحًا مبينًا ونصرًا عزيزًا للعلم والأخلاق والآداب والقيم- كما هي للتدين والاعتقاد.

نصل بعد هذه الجولة القصيرة إلى إجابة السؤال الذي بدأنا به، فنقرر في وضوح وجزم بأن العقيدة الدينية دافع أصيل من دوافع الإنسان وغريزة من غرائزه لا يخلو عنها ولا ينفلت منها.

وهي غريزة أصيلة فيه؛ على معنى أنها قائمة بذاته، ومستقلة عن الغرائز الأخرى، فلا تغني عنها غريزة سواها، ولا تندرج تحت واحدة عداها، فهي لا تعلَّل بغريزة الخوف والخنوع، ولا غريزة السيطرة وحب الظهور، ولا تغني عنها غريزة حفظ النوع ولا غريزة حب البقاء.

ولقد وجدت أديان وعقائد وضعية تخالف الغرائز كلها، ولا تنتهي إلى واحدة منها، ولا يمكن تفسيرها إلا على ضوء الغريزة الدينية وحدها، ولقد

أخبرَنا علماء المقابلة بين الأديان بأن هناك أديانًا تبشر بالفناء ولا تبشر بالبقاء، وتحرِّم على كهانها العمل، ولا تَعِدُهم شيئًا من السماء، وهذه معتقدات تخالف تمامًا أظهر وأقوى غريزتين في الإنسان، وهما غريزتا حب البقاء وحفظ النوع، فإذا لم يكن ثَم غريزة دينية تعلل هذه المعتقدات لدى الإنسان، فكيف تنمو هذه المعتقدات وهي لا تتمشى مع أي دافع، وتخالف كل غريزة؟

ونرى أن نختم هذا الفصل بالرد على بعض الطعون التي وجهت إلى التدين والاعتقاد كغريزة لها مكانها الأصيل في طبيعة الإنسان وحياته، حتى نكون بذلك قد أوفينا الموضوع حقه.

وهناك في هذا الباب طعنان اثنان هما الجديران بالاعتبار، وما عداهما فإما راجع إليهما من قريب أو بعيد، وإما غير ذي شأن على إطلاقه.

قد يبدو للبعض أن يطعن في أصالة هذا الدافع أو هذه الغريزة، متخذًا من الاختلاف الكبير والتباين بين العقائد الدينية التي اعتنقها الإنسان على مدى تاريخه الطويل، وكذلك من الخبط والتناقض الذي يشتمل عليه كثير من العقائد- أحيانًا- سلاحًا يوجه منه طعنات النقد، ومعاول الهدم، إلى ذلك الحصن الشامخ الذي يرتكز على أساس من جبلَّة الإنسان وطبيعته، وينفث في دمه وأعصابه، ويستولي بسلطانه على مشاعره ووجدانه.

وهؤلاء الطاعنون وأمثالهم كثيرون في كل زمان ومكان ممن يحادُّون الدين ويحاربونه بكل سلاح، يدفعهم إلى ذلك شذوذ في الطبع البشري وخلل في الكيان الإنساني، وهم وأمثالهم يطمعون في غير مطمع، ويحاربون في معركة خاسرة.

وقد يهيِّئُ لهم طبعهم المنحرف، وخيالهم المريض، أنهم قد أحرزوا بعض

انتصارات أو هم على وشك، ولكن هيهات أن يتحقق لهم شيء من ذلك، أو يمسخ الله الجنس البشري قردة وخنازير وملاحدة، وما ذلك إلا أحلام الضعفاء وسراب الصحراء، كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه، وما دعاء هؤلاء جميعًا إلا في ضلال وخسار.

ولو أن هؤلاء عقلوا الأمور كما يجب أن تعقل، وفهموها كما يحسن أن تُفهم، لأدركوا أن الاختلاف في العقائد أمر طبعي ومعقول، بل إنه الأمر الطبعي المعقول، ولو كان أمر الإنسان على غير ذلك في عقائده ودياناته لكان ذلك خروجًا عن طبيعة الأمور ومنطق العقول.

ولقد أشار القرآن المجيد إلى هذا الحقيقة التي تقرر أن الناس من شأنهم أن يختلفوا حول كل شيء، وبالذات حول العقيدة الدينة، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

فالإنسان زاول حياته في هذا العالم في أمكنة كثيرة ومختلفة، وكل مكان منها له بيئته وظروفه المناخية والمعيشية التي تكيف تفكير الإنسان وتصرفاته، فالحَر والبرد، والصحو والغيم، والسهل والجبل، وتوافر الغذاء وندرته، وكثير من العوامل غير هذه كان لها الأثر الكبير في تكييف تفكير الإنسان ونوع ثقافته، وفرض الحلول المعينة للمشاكل التي تقابله، كمشكلة العقيدة وكيفية إشباعها.

إن الإنسان اختلفت به بيئاته، والفكر ينتزع من البيئة أو هو صورة لها، فاختلفت الأفكار وتباينت، واختلفت- تبعًا لذلك- السبل التي يعالج بها الإنسان مشاكله الحياتية، وقد تتحد المشكلة لدى نوع الإنسان في كل مكان، ولكن تختلف طرق علاجها لدى كل فريق عن الفريق الآخر، فمشكلة العقيدة

عالجها كل فريق من الناس علاجًا يتواءم مع أفكاره وطبيعة بيئته، ويختلف مع أفكار غيره وبيئاتهم.

فالإله الأكبر عند الزراع إله الزرع، وعند الرعاة إله الرعي، وعند الذين يعملون في البحر إله البحر أو إله الريح، وهكذا.

ونحن لم ننتظر من الإنسان أن يتفق ويتلاءم مع أخيه في التافه من الأمور التي تجيء عفو الخاطر، ووحي الساعة، كطهي الطعام أو شكل اللباس، فكيف نطلب منه ذلك في هذا الأمر الهام، بل في أهم أموره على الإطلاق، وهو أمر العقيدة الوضعية التي لم يأخذها عن رسل الله؟

وهذا الاختلاف - على كثرته وتضاربه - لا يؤخذ دليلًا على زيف الدوافع إلى العقيدة الدينية وضلالها، وإنما أحرى به أن يؤخذ دليلًا على أصالتها وعمق جذورها في الطبع البشري والكيان الإنساني.

ونحن- مثلًا- نؤمن بأن الحقيقة واحدة ولا تتعدد، ومع ذلك فنحن نرى الكثيرين من الباحثين عن الحقيقة تتعدد سبلهم، وتختلف أساليبهم وتتدابر وسائلهم، وتتناقض مناهجهم، وهم يبحثون عن حقيقة نؤمن جميعًا، بل يؤمن كل واحد من هؤلاء الباحثين المختلفين بأنها واحدة ولا تتعدد.

فهل يؤخذ تعدُّد السبل، وتضاربُ الوسائل، واختلاف الباحثين حول الحقيقة الواحدة دليلًا على زيفها وعدم وجودها؟

ذلك ما لا يذهب إليه عاقل.

وهذا فريق آخر من الناس يطعن في أصالة دافع التدين لدى الإنسان، ويذهب إلى أن هذا الدافع مزيف وغير أصيل في الطبع البشري، وأنه دخيل على هذا الطبع

نتيجة الظروف التي عاشها الإنسان، والعوامل التي أحاطت به في هذه المعيشة.

فالإنسان قد وجد في هذا العالم تحيط به ظروف حياتية بالغة القسوة، عانى فيها كثيرًا من صنوف الشقاء والتعاسة؛ لذلك لجأ الإنسان إلى اختراع الدين، لأنه هو الذي يمده بنظريات تعويضية عن هذا الشقاء الذي يعانيه، ويمنِّيه بعالم آخر أفضل من هذا العالم، تردُّ إليه فيه حقوقه المغصوبة، ويهنأ فيه بسعادته المسلوبة، فالإنسان هو الذي اختلق هذا الدافع المزيف ليُرضي نفسه التعسة، وليعوضها عن هذا الشقاء الذي تعيش فيه.

فالدين على هذا الأساس عملية خداع وتضليل، ولكنه خداع ذاتي، من الإنسان وللإنسان.

وهذا الخداع الذاتي انتقل إلى أيدي الحكام والقادة فاستغلوه أسوأ استغلال، حين لجؤوا إليه ليطبع الشعوب على الاستسلام والخضوع والرضا بالمذلة والعبودية، وليقتل فيهم روح الثورة على الأوضاع السيئة؛ اعتمادًا على دار أخرى فيها التعويض، وفيها الجزاء، وفيها السعادة والمسرة في جنة عرضها السماوات والأرض، أعدت للمستذَلين.

ومن هنا فلقد أطلق هذا الفريق من الناس على الدين اسم: (أفيون الشعوب) أو (مخدر الشعوب).

وأصحاب هذا الرأي يعكسون الأمور، ويسقطون نقائصهم التي تحتسب عليهم في إلحادهم وانحلالهم على المتدينين وأصحاب العقائد.

فالحق أن هذا الوصف الذي يطلقونه على الدين هو آخر وصف يمكن أن يلصق بالدين، وأول وصف يلحق بمذاهبهم وفلسفاتهم، بل إن هذا الوصف لا

يمكن أن يلصق بالدين على الإطلاق، ولا يمكن إلا أن يلصق بمذاهبهم من مبدئها إلى منتهاها.

فالدين ليس مخدِّرًا للشعوب ليطبعها على الاستسلام والخنوع؛ لأن الدين قد سبق في وجوده وجود الحكام والشعوب، ووجود النظريات السياسية وما تشتمل عليه من تقرير حقوق الشعب وواجباته، وحقوق الحكام وواجباتهم.

والدين ليس مخدِّرا للشعوب؛ لأن الإنسان آمن بالديانات الوضعية واعتنقها، ولم يكن قد عرف- بعدُ- شيئًا عن اليوم الآخر أو الدار الآخرة التي يقوم على أساس منها ذلك الاتهام الضال المضلل.

والدين ليس مخدِّرًا للشعوب؛ لأن الدين الوضعي لم يكن في كل أحواله مبشِّرًا بيوم آخر، ولا بسعادة أخروية، ولا بحياة خالدة أبدية.

ولقد وُجدت- كما أشرنا قبل ذلك- أديان تبشر بالفناء، وتحرم النسل، ولا تَعِد معتنقيها شيئًا في السماء.

والدين ليس مخدِّرًا للشعوب لصالح الأغنياء أو الحكام؛ لأن الدين يشتمل الأغنياء والفقراء معًا، والحكام والمحكومين جميعًا، والإيمان بين الأغنياء والحكام لا يقل عنه بين الفقراء والمحكومين.

والدين ليس مخدِّرًا للشعوب؛ لأن خصائص المخدِّر أن يرفع عن الإنسان الشعور بالمسئولية، ويسقط عنه التكليف، ويحل عنه رابطة القيم والأخلاق، ويدفع به وراء شهواته كما تندفع السائمة على غير هداية، والدين نقيض ذلك كله.

فأخص خصائص الأديان في عمومها أنها تخلق في الإنسان شعورًا بالمسئولية حاضرًا ويقظًا وحسَّاسًا، يؤاخِذ على الصغيرة والكبيرة، ويحاسب على السر

والعلانية، ويجازي على خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

فالدين لا يخدِّر؛ وإنما يوقظ من التخدير، ويُحْيِي الضمير، وينمي الشعور بالمسئولية.

ونصل بعد ذلك إلى نهاية هذا الحديث؛ لنؤكد من جديد بأن الدين غريزة، ودافع أصيل لدى الإنسان، لا يمكن أبدًا أن يجد الإنسان مفرًّا منه ولا خروجًا عليه.

ولا نجد ختامًا لذلك المبحث- في موضوعه- أحكم من الكلمة التي أطلقها إغريقي في هذا المعنى، والتي تقول:

«من الجائز أن تجد مدينة بلا حاكم، وبلا أسوار، وبلا حراس، وبلا سلطة، ولكن من المستحيل أن تجد مدينة بلا معبد»[١].

(١) انظر: العقيدة الربانية وأصل الإنسان، لعبد الله ناصح علوان (ص ١٨ - ١٩) والعبارة للمؤرخ اليوناني (بلوتارك).

المبحث الرابع

نشأة الدين الوضعي

- بداية التدين الوضعي.
- أطوار الدين الوضعي.

الطور الأول: عبادة الطواطم.

الطور الثاني: عبادة الظواهر الكونية.

الطور الثالث: عبادة الإله المفارق.

- العقيدة الوضعية بين التعديات والتوحيد.

نشأة الدين الوضعي

على الصفحات التالية سوف ندرس- بحول الله تعالى- نشأة الدين الوضعي، فنحن نعلم أن الله سبحانه قد خلق أبا البشر آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وبعثه بالإسلام نبيًّا ورسولًا، ثم جاء رسل الله- عليهم صلوات الله وسلامه- كلهم مسلمين يدعون إلى الإسلام دين الله.

وهذا هو طريق الوحي المعصوم الذي وضع الناس من الدين على صراط مستقيم.

ولكنا نعلم أن هناك من الناس قبائل وشعوبًا نشأت على فترة من رسل الله وكتبه، ولأن الدين غريزة أصيلة في الإنسان- كما بيَّنَّا قبلًا- فلم يستقم أمر هذه القبائل والشعوب دون التدين، ومن ثم فقد نشأ بين هذه القبائل والشعوب البدائية أنواع من الاعتقادات الدينية تتناسب وثقافاتها البدائية، من الإيمان بالروح والأوثان ومظاهر الطبيعة، إلى آخر هذه الصور، ثم بدأت هذه القبائل تترقى في اعتقاداتها، وتتطور، وما يزال- حتى يومنا هذا- هناك قبائل بدائية تعيش تلك الحياة الدينية الساذجة منقطعة عن العالم الخارجي وسط أدغال وَأَحْرَاش.

وعلى الصفحات التالية سوف ندرس نشأة العقائد الدينية الوضعية لدى هذه القبائل البدائية، أما دين الله الحق، فنحن نعرف أنه نزل على البشرية بدءًا من أبيها آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وحتى أبر أبنائه جميعًا محمد وخاتمهم- صلى الله عليه وعليهم أجمعين.

لقد حفل تاريخ الأديان بالعديد من الأشكال والصور التي تقمصها الدين الوضعي في رحلته عبر تاريخه الطويل، ولقد بدأ تاريخ التدين في كل مكان على شكل من العقيدة قد يتفق مع بدايته في بعض الأمكنة الأخرى أو يختلف، وقد يكون ذلك الاتفاق أو الاختلاف في مضمون العقيدة وجوهرها أو في شكلها وعرضها.

ولعله من الأفضل أن ننبه ابتداءً إلى أنه من الأمور العسيرة جدًّا أن نحاول تنظيم هذه الصور والأشكال التي مر بها التدين لدى الإنسان البدائي- الذي جاء على فترة من الرسل، فلم يعرف دين الله الحق في تاريخه الطويل- في سُلَّم متتابع الدرجات متناسق التقاسيم، لا تتقدم فيه درجة على سابقتها، ولا تتأخر عن لاحقتها، فذلك هدف لا مطمع فيه لطامع.

وقصارى جهد الباحث في هذا المجال أن يبين النقطة التي ابتدأ عندها تدين الإنسان البدائي أو اعتقاده بالمعنى المفهوم لكلمة دين أو عقيدة، ثم يبين بعد ذلك- على وجه التغليب والترجيح، وليس على وجه اليقين والجزم- الترتيب الذي يراه للأطوار التي مر بها التدين لدى هذا الإنسان.

وقد يكون في هذه الأطوار ما هو واضح النسبة محدد المكان، وقد يكون من بينها ما هو مبهم قليل إبهام أو كثيره، وقد نصطدم بشكل من أشكال التدين متميز بمفرده كل التميز، وقد نرى شكلًا آخر يشيع في أكثر من طور، ويلتبس مع أكثر من شكل من أشكال التدين التي تغايره.

وقد يكون ذلك نقصًا عن درك الكمال، وتقصيرًا عن درج التمام، وإنه لكذلك، ولكنه تقصير نُعْذَرُ فيه، ونقص لا نؤاخذ عليه.

فمما لا جدال فيه أن تقويم أي عمل إنساني لا يصلح بتجريد العمل عن

ظروفه ومجاله وآلاته، وإنما لكي يكون التقويم قويمًا والمنهج فيه حكيمًا، والحكم على أساسه سليمًا، ينبغي أن يراعى في هذا التقويم ماهية العمل، ووصف المجال الذي يعمل فيه، ومدى ما يحيط هذا المجال من عوامل مساعدة أو عوامل معوِّقة، وعلى ضوء فهمنا طبيعة المجال، ومدى ما فيه من يسر أو صعوبة يكون تقويمنا للعمل سليمًا أو غير سليم.

ونحن نعمل في هذا الفصل في مجال سبقنا إليه عشرات ومئات من العلماء المتخصصين، جَدُّوا جَدَّهم وجهدوا جهدَهم ثم لم يستطيعوا أن يصلوا فيه إلى كمال أو قريب من الكمال، وقضَوا وتركوا المجال من بعدهم لعشرات ومئات مثلهم، ثم لا تكون النتيجة عند اللاحقين بأفضل منها عند السابقين.

ذلك أن طبيعة المجال تأبى الكمال فيه- إن أردنا بالكمال الكلمة الفاصلة- فمن العسير جدًّا الذي يقرب من المستحيل أن نصل إلى هذا الكمال، أو إلى الكلمة الفاصلة التي ليس بعدها كلمات، بل جمل وسطور.

وعلى هذا فنحن- بمشيئة الله تعالى- سنعمل، ولنا من طبيعة عملنا العذر، ولنا منه الحامي عن المؤاخذة.

بداية التدين الوضعي

إن أهم مرحلة مر بها الإنسان البدائي في طريقه إلى التدين الوضعي كانت- ولا ريب- هي مرحلة الإيمان بالروح.

فإيمان الإنسان البدائي بالروح كان المرحلة الحاسمة في تاريخ تدينه؛ لأنها المرحلة التي انتقل بها من الإيمان فقط بما يحس ويلمس، إلى الإيمان بقوة خفية وعالم غيبي لا تدركه الأبصار.

ومما لا شك فيه أن أهم ركيزة يقوم عليها الدين هي الإيمان بموجود أو موجودات خفية وغير مادية، والإنسان قبل أن يكتشف الروح ويؤمن بوجودها- على أي شكل كان هذا الإيمان- لم يكن مستطيعًا أن يؤمن بهذا الموجود أو هذه الموجودات التي يقوم الدين على أساس من الإيمان بها والاعتقاد فيها.

فالإيمان بالروح كان نقطة الانطلاق التي خرج بها الإنسان من كثافة المادة إلى شفافية الروح، ومن قيود هذه وعجزها إلى انطلاقة تلك وقدرتها التي لا يحدها الخيال، ومنذ آمن الإنسان بالروح انفتح أمام عينيه المنفذ الواسع إلى عالم ما وراء المادة التي كانت تقيد حسه وفكره وعقله.

ولقد ذكر العلماء في معرض التعليل لاهتداء الإنسان إلى الروح وإيمانه بها عدة عوامل، نكتفي منها بذكر ثلاثة، هي أشهرها وأهمها وأجمعها:

أولًا: أن الإنسان كان يرى نفسه أثناء نومه يأكل ويشرب، ويصارع ويصرع،

ويرضى ويغضب، ثم يستيقظ فيرى أنه ما يزال في مكانه لم ينتقل قِيدَ أُنْمُلَة، فيفكِّر ويقدِّر، ثم لا يجد حلًّا لهذه المعضلة إلا بالالتجاء إلى فكرة الروح، وبأنه فعل هذا بروحٍ يسكن جسده.

فما دامت هناك حركة حدثت، وأنه هو الذي تحرك، وما دام جسده لم ينتقل من مكانه، فلا بد أنه تحرَّك بشيءٍ آخر غير جسده، وهذا الشيء هو الذي أطلق عليه اسم (الروح)، وبه يستطيع أن يفعل أمورًا كثيرة دون حاجة إلى الجسد، بل قد لا يستطيعها أثناء تلبُّسه الجسد.

ثانيًا: كان الإنسان ينام فيرى في منامه الموتى الذين ارتحلوا عن هذا العالم وانقطعت صلته بهم يأتون إليه من جديد، يأكلون ويشربون ويسعون ويتحركون ويصطادون ويتصارعون، ويأمرونه بأشياء وينهونه عن أخرى، إلى غير ذلك من الأمور التي يختص بها الأحياء.

ومن ثَمَّ فقد وقر في ذهنه وشعوره أن الأحياء حين يموتون لا يفنون بالكلية، ولا تنتهي صلتهم بهذا العالم جملةً، وإنما هم ينتقلون بالموت من دارٍ إلى دار، ومن مرحلةٍ إلى مرحلة، ومن طبيعةٍ إلى طبيعة، وأنهم بالموت إنما يتخلصون من جسدهم، وينتقلون إلى عالم آخر يعيشون فيه متحررين من المادة، ولا تنقطع صلاتهم بهذا العالم الذي يشغله الأحياء، بل يظلُّون على اتصال دائم به وبمن فيه، وإنهم في عالمهم الجديد لهم مطاعمهم ومشاربهم ورغباتهم، وما يحبون وما يكرهون.

ولكن إذا كان الأموات قد تركوا أجسادهم وخلَّفوها من ورائهم، فكيف يزاولون حياتهم الجديدة بدونها؟ وبأية علَّة يمكن أن نعلِّل ذلك؟

لم يكن الإنسان الأول بطبيعة الحال، عنده علم عن العقل الباطن أو اللاشعور، وما يمكن أن يفيض من هذا العقل أو من اللاشعور أثناء انحلال رابطة العقل الواعي أو الشعور عند النوم من صور وخيالات مخزونة، ورغبات مكبوتة.

ولذلك فقد علَّل الإنسان هذه الأمور العجيبة التي رآها في أحلامه بفكرة الروح، معتقدًا أن هناك خلاف الجسد الذي نحيا فيه حياتنا هذه كائنًا آخر يمكن أن نزاول به أمور حياتنا وبحريَّة أكثر، هذا الكائن هو الروح.

فعندما يموت الإنسان فإنه يترك جسده للفناء، أما روحه فَتتحرَّر من جسده، وتذهب هناك إلى عالم آخر هو ما أطلق عليه عالم الأرواح، أو عالم الأموات.

وربما اعتقد الإنسان القديم أن الروح تتألم لفقد جسدها في عالم الأرواح أو عالم الأموات، أو أن حياتها حينذاك سوف تكون حياة ناقصة، وأنها إن لم تعثر على جسدها فتلبسه من جديد، فإنها سوف تظل تبحث عنه في حياة يخيم عليها التشرد والضياع، وأنه مما يسعدها في حياتها الجديدة ويساعدها على مزاولة شئونها في هذه الحياة أن تحتفظ بجسدها فتحل فيه من جديد؛ ولذلك فربما احتال جهدَه على أن يظل هذا الجسد سليمًا، وعلى أن يكون بحيث يمكن أن تعود إليه الروح، وربما وضع بجانبه كل ما يحتاجه من غذاء أو كساء أو حُلِي حين تحل فيه الروح من جديد في حياتها الجديدة.

ومن هؤلاء بُناة الأهرامات ومحنطو الأجساد من المصريين القدماء، الذين تركوا آثارهم الخالدة من معجزات العمارة والكيمياء، ناطق صدق وشاهد حق على أصل هذه العقيدة في نفوسهم، وعلى قوة تأثيرها فيهم وتأثرهم بها حتى بذلوا من أجلها كل مرتخص وغال.

ثالثًا: رأى الإنسان الأول أن الموت يختطف مَن حوله فجأة، فينتقلون من خِضَم الحياة الحافل إلى خمود الموت الساكن، فينقطع اتصالهم بمن حولهم، ويصبحون في لحظة واحدة جثثًا خامدة لا تجيب، ولا تستجيب، ومن هؤلاء من كان يُكْبِرُه لقوته وفتوته، ومنهم من كان يُكْبِرُه لسداد رأيه وحكمته، ومنهم من كان يرهبه ويخشاه، ومنهم من كان يعزُّه ويحبُّه.

ولم يقتنع الإنسان البدائي أن هؤلاء جميعًا مع قوة تأثيرهم فيه وتأثره بهم يمكن أن ينتهوا فجأة، ومعهم ينتهي كل ما أحاط بهم من إكبار وإجلال أو إعزاز وحب أو رهبة وخوف.

لم يقتنع بأن صاحب القوة الباطشة الذي ظل يُرهبه بقوته وجبروته السنين الطوال، يمكن أن يتحول في لحظة إلى هباء لا يخيف ولا يرهب.

وكأني بذلك الإنسان البدائي يتقدم إلى جثة ذلك الذي كان يرهبه في حياته، كأني به يتقدم إليها في رهبة وخشية وإجلال؛ ليقدِّم لها ما كان يقدِّم لصاحبها من فروض الاحترام والإكبار والطاعة والولاء، وفي عقيدته إنه إنما ذهب إلى رحلة وسيعود منها بكامل قوته وجبروته؛ ليؤدب العاصي ويعاقب المتمرد كما كان يفعل في حياته.

ومثل هذا الذي حدث للذين كان يرهبهم ويخشاهم، حَدَثَ- أيضًا- للذين كان يحبهم ويعزهم، والذين كان ينتفع بحكمتهم وسداد رأيهم.

من أجل ذلك كله، وحتى يستطيع الإنسان الأول أن يوفق بين حبه وإعزازه إياهم، أو خشيته ورهبته منهم، وبين ذهابهم عنه وخروجهم عن عالمه، ولأنه كان يضنُّ بهم على الموت- اخترع الإنسان فكرة الروح أو توصل إليها، فاعتقد أن

الأموات لا يفنون بالكلية، وإنما هم ينتقلون إلى عالم جديد يزاولون فيه حياتهم، وكيف يزاولونها وقد خَلَّفُوا الجسد؟ والحل أو الإجابة يكمن في فكرة الروح.

ولقد نظر الإنسان فوجد أن الحي حين يموت لا يفقد شيئًا إلا توقُّف نَفَسِه عن الدخول والخروج، فذهب إلى أن ذلك النَّفَس هو الروح، أو أن له علاقة كبيرة بالروح؛ فهو منها وهي منه.

ومن هنا يأتي الارتباط الكبير بين تصور النفس والروح، حتى لقد قرب اللفظان من بعضهما، واتضحت هذه الدلالة فيهما، فلفظة الروح ترتبط إلى كلمتي النَّفَس والنَّسمة، وهي كلها تميل إلى الهوائية وتعطي معنى الشفافية، يقول في هذا المعنى الأستاذ عباس العقاد: «ولا شك- على الإطلاق- في ارتباط الروح بالهواء في بديهة المؤمنين الأولين بالأرواح، فإن الكلمات التي تطلق عليها في العربية تدل كلها على ذلك، وهي الروح والنفس والنَّسمة، وفي ذلك دلالة لا شك فيها على أصلها الأول من بداهة الإنسان»[١].

والتعليل الثالث لتوصل الإنسان الأول إلى فكرة الروح ينقله إلينا الأستاذ العقاد عن الفيلسوف (تايلور) الذي يرجع بهذه الفكرة إلى غريزة الاستحياء، أي استحياء الإنسان الجمادات[٢]، وملخصها أن الإنسان الأول لم يكن يفهم تعليلًا لظله الذي يلازمه في غدوه ورواحه، والذي كان يطول أحيانًا ويقصر أحيانًا، ويصاحبه في وقتٍ ويتخلى عنه في وقتٍ آخر، وكذلك لم يكن هذا الإنسان يفهم صورته التي تتراءى له على صفحة الغدير فهمًا صحيحًا؛ لأنه لم

---

(١) الله، لعباس محمود العقاد (ص٣٩).

(٢) المصدر السابق (ص٢٩).

يكن قد توصل إلى نظريات الضوء، وقوانين انعكاساته وضوابط مساره إلى غير ذلك، ومِن ثَمَّ فقد كان يحسبها نُسَخًا حية منه، وكان يعتقد أنه يصاب من جهتها بالسحر والطلاسم، وكان يصونها من كيد أعدائه كما كان يصون أعضاء جثمانه، ولما صار الإنسان بين هذا الازدواج ولم يجد له تعليلًا ألحقه بازدواج الأرواح والأشباح على نحو من الأنحاء.

وكذلك كان الإنسان الأول كالطفل كثيرًا ما يُلبس الأشياءَ الجامدةَ ثوبَ الحياة، ويخلع عليها صفات الأحياء، وكان جهله بالأشياء مثل جهله بالظلال والأشباح، فكان يعاملها كما يعامل الأحياء تمامًا.

ونحن نرى الكثيرين من المثقفين في عصرنا هذا يهتاجون فيخاطبون الجمادات بألفاظ السباب والزجر، ويغلب عليهم الحزن والوجد فيعتبون على الشيء الذي لا حِسَّ له، كأنما هو يحس منهم العتب واللوم.

ولعل شعراءنا القدامى كانوا ينزعون إلى هذه الغريزة فيهم عندما كانوا يقفون على الأطلال فيخاطبونها ويسائلونها عن الحبيب، ويبثونها لوعاتِهم، أو حينما كانوا يسألونها مثل هذا السؤال:

يا دار ما فعلت بك الأيام؟

هذه هي العلل المشهورة التي عَلَّل بها العلماء اهتداء الإنسان إلى فكرة الروح قديمًا.

وأيًّا كان نصيبها من الصواب أو الخطأ، فالمحقَّق أن الإنسان البدائي قد توصل إلى فكرة الروح وآمن بها، وعاش فيها، وكان لها تأثير كبير على كل مناحي حياته ونواحي نشاطه، حتى ليُعَد اهتداؤه إلى فكرة الروح هو الحدث

الأكبر والأعظم والفَذ بلا نزاع في تاريخ الإنسان البدائي على ظهر هذه الأرض.

فقبل أن يهتدي الإنسان البدائي إلى فكرة الروح كان كائنًا ماديًّا صرفًا، لا يؤمن إلا بما يحسه ويلمسه، ولا يدين إلا بالمادة الجامدة التي تطبق على حِسِّه وفكره وشعوره، ولقد ظل على ذلك حتى آمن بالروح، وعند ذلك انفتحت أمامه منافذ واسعة وفسيحة إلى ما وراء المادة التي كان حبيسَها وسجينَ جمودِها.

ولقد كان مكسب الإنسان من وراء اهتدائه إلى الروح علميًّا لا يقل عن مكسبه عقديًّا أو دينيًّا، فالحق أن ربح الإنسانية من وراء هذه الفكرة لا يقدَّر على أساس من الدين أو العقيدة فحسب، ولكنه يقدَّر على أسس كثيرة وعديدة من المجالات التي انفتحت أمام الإنسان عن هذا الطريق في العلم والأخلاق، والقيم والمثل، والآداب الإنسانية وتربية الضمير، فالإيمان بالروح كان مكسبًا لهذه المجالات كلها بالإضافة إلى مجال التدين والاعتقاد.

ولو أن الإنسان جهل الروح ولم يتوصل إليها لَما فاته الدين أو العقيدة فحسب، بل لفاته مع ذلك- وقبل ذلك- العلم والأخلاق والآداب والقيم، ولجهل كل ما يقال الآن عن الحق والخير والجمال.

وإيمان الإنسان البدائي الذي لم يعرف دين الله عن طريق الرسل، إيمانه بالروح كان البداية البادئة لتدينه واعتقاده، فقبل أن يؤمن بالروح لم يكن متدينًا على الإطلاق؛ ولذلك فنحن لا نتصور- إطلاقًا- أن ثمة طورًا من التدين أو أطورًا سبقت الإيمان بالروح، بل نقول: إنه قبل الإيمان بالروح لم يكن هناك تدين ولا اعتقاد، ولأنه لا يتصور أن يكون هناك دين دون أن يسبقه ويصحبه إيمان بالروح.

ولقد خالف في ذلك بعض علماء المقابلة بين الأديان، فذهبوا إلى أن الإيمان بالروح مرحلة سبقتها مرحلة أخرى أو مراحل.

وهذه هي المدرسة الفرنسية وعلى رأسها عَلَمُهَا الأشهر في الاجتماع والنفس (دور كايم). وتذهب هذه المدرسة إلى أن عبادة (الطواطم) سادت كل المجتمعات البدائية الأولى، وأنها كانت الطور الأول والبداية البادئة في تدين الإنسان واعتقاده، وأنها قد سبقت الإيمان بالأرواح وعبادتها.

ولكنا بعد استعراض هذا الرأي وأمثاله من الآراء التي تزعم أنه قد كانت هناك أديان قبل أن يعرف الإنسان الروح، نجد هناك سؤالًا يُلِحُّ في طلب الإجابة:

وما عبادة الطواطم؟

أليست هي عبادة الإنسان حجرًا أو شجرًا أو حيوانًا، يعتقد أن روح سلفه أو جده الأعلى تحلُّ فيه وترقب سلوك أحفادها، وترعاهم من خلال هذا الطوطم من الحجر أو الشجر أو الحيوان.

وهل كان يمكن أن يتخذ الإنسان حجرًا أو شجرًا أو حيوانًا إلهًا يعبده ويتقرب إليه، إذا لم يكن مؤمنا بالروح، وبأنها انتقلت من سلفه أو جده إلى هذا الكائن الذي يعبده ويدين له؟

وإذن؛ ألا يحق لنا أن نقول: إن الإنسان آمن بالروح، وآمن بإمكان انتقالها من كائن إلى كائن قبل أن يؤمن بعبادة الطواطم، ومثل هذا يقال فيمن يذهبون إلى أسبقية عبادة الأسلاف أو عناصر الطبيعة ومظاهرها.

بعد ذلك أعتقد أن من حقنا أن نؤكد ما ذهبنا إليه من أن عقيدة الأرواح كانت هي الخطوة الأولى على درب التدين والاعتقاد لدى الإنسان البدائي،

الذي لم يأخذ دين الله عن رسل الله، وأنه لو لم يكن هناك إيمان بالروح لما كانت لديه عقيدة أو دين.

وعلى الرغم من اقتناعنا بأن عقيدة الأرواح كانت البداية البادئة لمراحل التدين لدى الإنسان البدائي، إلا أننا لم نشأ أن نعتبره طورًا من أطوار التدين أو مرحلة من مراحله على حدة، وبدأنا تلك الأطوار بما سوى الاعتقاد في الروح.

وإنما آثرنا ذلك لسببين:

الأول: أن الإيمان بالروح لم يكن مرحلة من مراحل التدين استغرقت وقتًا محددًا لها كأي طور من الأطوار الأخرى، ثم أسلمت القياد لطور آخر وانكمشت هي في زاوية التاريخ، ولكن الإيمان بالروح كان بداية التدين، ثم استمرارًا لذلك التدين، فهو بداية التدين. ثم بعد ذلك صاحب كل المراحل والأطوار التي أتت بعده، فالإيمان بالروح قاسم مشترك بين الأطوار العقدية لدى الإنسان من بدايتها وحتى نهايتها، فما من طور من الأطوار التي مر بها التدين البدائي إلا وعقيدة الروح تصاحبه وتتخلَّله.

فإيمان الإنسان بعقيدة الطواطم لم يكن ممكنًا إلا باعتقاد الإنسان في الروح وإيمانه بها.

وكذلك عقيدة الإنسان في ظواهر الطبيعة وعناصرها لم يكن ممكنًا إلا باعتقاده أولًا في الروح، وحلولها في جرم كوكب أو شمس أو قمر، أو تسخيرها للرياح والعواصف والبروق والرعود، إلى غير ذلك كله.

فلو لم يؤمن الإنسان بأن ثمة روحًا تسكن الشجر أو الحجر أو الحيوان، أو الشمس أو القمر أو الكواكب أو ظواهر الطبيعة في عمومها، لما جاز أن يعتقد في شيء من ذلك كله.

وبذلك يتأكد ما ذهبنا إليه من أن عقيدة الروح لم تكن عقيدة مرحلة معينة، أو طور بخصوصه، وإنما كانت عقيدة الأطوار كلها، لبست كل طور وتقمصت كل مرحلة.

الثاني: أن الإنسان لم يعبد الروح في يوم من الأيام مجردةً عن غواشي المادة وشائبة التجسد، فالإنسان عبد الروح حين توصل إلى معرفتها وآمن بها متمثلة في صورة حجر أو شجر أو حيوان.

ذلك أن الإنسان البدائي لم يكن يستطيع أن يهضم فكرة المعبود المجرد عن المادة، شأنه في ذلك شأن كل ذي تفكير قاصر في كل زمان ومكان.

فالمجردات تتطلب مستوًى عاليًا من التفكير العقلي والثقافة الذهنية لم يصل إليه الإنسان البدائي؛ لذلك كان لا بد من تجسيد ذلك المعبود حتى يملأ حسَّه ولمسَه بعد أن ملأ قلبَه وعقلَه؛ ومِن ثَمَّ فقد احتال الإنسان حتى أحال هذا المعبود إلى جسدٍ مادي يحل فيه الروح المعبود، ويتقرب إليه أتباعه بمختلف أنواع الطقوس والشعائر.

وإذن فلقد أصبح للمعبود روح، هذه الروح تحل في كل كائن من الكائنات المعبودة، وأصبح هذا الكائن يتوجه إليه الإنسان بأنواع العبادات والطقوس، وبمرور الوقت ينسى الإنسانُ المعبودَ الأصليَّ ثم يحصر عبادته في مُمَثِّلِهِ أو في الكائن المادي الذي كانت تحل فيه روح الجد أو السلف الذي هو المعبود الأصلي.

وآفة التجسيد هذه موجودة دائمًا، حيث توجد السذاجة والجهل؛ ولذا نرى العوام في كل زمان ومكان يميلون إلى تجسيد الإله بشكل أو بآخر، وليس ذلك وَقْفًا على الأديان البدائية أو الوضعية فحسب، ولكنه ينسحب حتى يشمل

الأديان الكتابية- أيضًا-.

فهؤلاء هم بنو إسرائيل يطلبون من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يريهم اللهَ جهرة، ثم يطلبون منه أن يجعل لهم آلهة أصنامًا كهؤلاء الذين مروا بهم يعكفون على أصنام لهم، ولما لم يحقق لهم ذلك اتخذوا عجلًا جسدًا له خُوار.

وهؤلاء أتباع المسيح عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ اتخذوا التثليث عقيدة، ثم اتخذوا من عيسى ابن مريم إلهًا يعبدونه من دون الله الحق؛ لأنه من لحم ودم، ولأن صورته مجسَّدة أمامهم في كل مكان وحين، ثم اتخذوا لعيسى ابن مريم أصنامًا صنعوها على شاكلة رجل مصلوب، ووضعوا هذا الصنم في كل مكان ومرفق؛ تأكيدًا لمعنى التجسيد، حتى لقد حملوه في حلِّهم وترحالهم، ورسموه على أعضاء أجسادهم.

وأخيرًا تأتي طوائف من المسلمين على غير استثناء من هذه القاعدة العامة الشاملة.

ففي زمن رسول الله محمد ﷺ يطلب منه بعض أهل الطائف أن يجعل لهم أصنامًا آلهة كما لبعض المشركين في نواحيهم، ثم يعظِّم بعض المسلمين شجرة تسمى ذاتَ أنواط، فيقطعها الخليفة الحازم عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى إذا تأخر الزمان وعم الجهل حلَّ بعض المشايخ ومن يسمَّون الأولياء محل الأصنام والشفعاء، وأصبح لكل شيخ مريدون يطلبون منه ويتوسلون إليه، وفي ازدحام الشيوخ ومن يسمَّون الأولياء نسي المريدون- ومنهم العوام الذين أضلهم جهلهم، والعلماء الذين أضلهم الله على علم- نسي هؤلاء جميعًا أن هناك إلهًا، هو إله الشيوخ كما هو إلههم، وأن الشيوخَ عبيدُه كما هم عبيده، وأن أخص ما يتصف به هذا الإله أنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، لا نافع إلا هو، ولا ضار إلا هو، وأنه لا يقبل وساطة ولا يحتاج إلى ناصح أو مشير، وأن من

صفات هذا الإله أنه غيور، لا يقبل الشرك، ولا ما يقاربه أو يوهمه، وأنه سمى التوسل بغير العمل الصالح عبادة، والتشفع شركًا، والمتوسلين والمستشفعين مشركين، حين يقول- جل من قائل:

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨].

ولأن هذا شأن الإنسان؛ فإن البدائي لم يعبد الروح مجردةً، وإنما عبدها مجسدةً في شكل ماديٍّ أيًّا كان هذا الشكل.

ولذلك فنحن لم نعتبر عبادة الروح مرحلة من المراحل التي نحدُّها بحدودها من الزمان أو المكان، وإنما نعتبر عبادة الأرواح مظهرًا عامًّا وقاسمًا مشتركًا بين جميع الأطوار التي مرت بها عقيدة الإنسان منذ أن اعتنق عقيدة أو دان بدين.

وفي ختام كلامنا عن عقيدة الروح نرى أن نشير إلى بعض النقود التي وجهت إلى عقيدة الروح في أصلها، أو في تفسيرها، وتعليل إيمان الإنسان بها واكتشافه إياها، وهي في مجموعها نقود لا تدل على ضعف المذهب بقدر ما تدل على سقم الفهم لدى الناقد.

فلقد وجهت إليها النقود بأنها:

- لم تستغرق عبادات الأقدمين في زمن من الأزمان.
- وبأن النائم يرى أطياف الغرباء كما يرى أطياف الآباء، ويرى أطياف الضعفاء والأطفال، ويرى أطياف السِّباع.

تُرى: لماذا عَبَدَ أطياف الآباء والأجداد، ولم يَعْبُد أطياف الأطفال أو

السباع؟ بل لماذا كان يقتل السباع مع أنه كان يراها في المنام كما يرى الأطياف الأخرى التي عبدها وقدَّسها؟

- وبأن عقل الهمجي مهما بلغ من قصوره وسذاجته، فإنه لا يجهل أن الروح التي تأتيه في الأحلام، إنما هي في حاجة إليه، وليس هو في حاجة إليها، وأنه أقوى منها وهي أضعف منه، وأن بإمكانه أن يمنع عنها الأكل والطعام فيقتلها.

وهذه نقود في واقعها ساذجة ومتهافتة كما أشرنا؛ فالواقع أن الأحلام لم تخلق في الإنسان الأول تقديس الآباء أو الأبطال أو كل من قدسه، ولكن كان هؤلاء محل تقديس منه وإكبار في حياتهم وقبل أن ينتقلوا من عالمه، فلما تحولوا عنه وتواروا عن عينه حين ماتوا لم يتحول قلبه عن تقديسهم وإكبارهم، وكل ما حدث أن هذا التقديس ظَلَّ في حالة كُمُونٍ واستتارٍ؛ نتيجة تواري محلِّه وتلاشيه، وعندما رأى الإنسان الهمجي هؤلاء الذين كان يقدسهم في أحلامه مرة ثانية، وأدرك أنهم ما زالوا أحياء أو توصل إلى ذلك بفهمه الساذج عاد إلى تَقْدِيسِهِم من جديد.

ولكن يلاحظ أن هذا التقديس الجديد لم يعد تقديسًا من قبيل الإكبار كما كان في حياتهم، وإنما تحول إلى تقديس من قبيل العبادة، وتحولت مكانتهم من الأبوة بعلاقتها النسبية إلى الألوهية بعلاقتها الربوبية، وذلك طبعي بالنظر إلى الحالة التي أصبح عليها الأسلاف، والظروف الجديدة التي طرأت عليهم وأحاطت بهم، وعملت عملها في تحويل هؤلاء الأسلاف إلى مرتبتهم الجديدة، فنقلَتهم بالموت وبعدهم عن ذويهم، والبعد يذكي نار الشوق، ويزيد لذع اللهفة، ويحول الوفاء المتزن إلى تقديس متهور.

وكذلك ما صاروا إليه من شفافية وانطلاق ساعد على وضعهم في مرتبة الألوهية، فالإنسان الأول رآهم في منامه على حالة تخالف الحالة الأولى من حيث التقيد بالجسم وضوابطه، فهم يدخلون ويخرجون، ويروحون ويجيئون بلا حواجز أو موانع، ويفعلون ما يفعلون دون رقيب أو حسيب، وهذه حالات يعجز عن مثلها الأحياء، فهي من قبيل المعجزات والخوارق.

يضاف إلى كل ذلك ما يحيط بهم من إبهام وغموض، فالإنسان الأول لم يكن يعرف عنهم في حالتهم الجديدة شيئًا يذكر، وكان ينظر إليهم في لباس كثيف من الغموض والإبهام، والغموض والإبهام من العوامل التي تذيع الخوف، وتشيع الرهبة، وتدفع إلى الإكبار والتقديس.

وإذن فالأحلام لم تخلق التقديس في الإنسان الأول، وإنما هي فقط أمدته بالمقدَّس حين أطلعته على جده في حياته الجديدة، وحين أعلمته بأن حادثة الوفاة لم تكن حادثة إفناء وإنما حياة جديدة، في مرحلة جديدة في عالم جديد.

إذا عرفنا هذا، عرفنا أن فكرة الإنسان عن الأشياء التي يراها في الأحلام ليست فكرة جديدة خلقتها الأحلام، وإنما هي نفس الفكرة القديمة، وأن الأحلام فقط خلقت عنده فكرة الروح أو ساعدته على ذلك، وأن أفكاره عن الأشياء ظلت ثابتة لم تتغير باكتشافه فكرة الروح، أو برؤيته الموتى في الأحلام، فإذا كان الأسد يجب أن يُقتل قبل أن يراه في أحلامه، فهو كذلك بعد أن رآه، وإذا كان الطفل يجب أن يُرحم ويشفَق عليه قبل فكرة الروح، فهو كذلك بعدها، وإذا كان الآباء والأجداد يجب إكبارهم وتقديسهم، والأبطال يجب تعظيمهم فالأمر كذلك بعد اكتشاف فكرة الروح.

أما ما ذُكر من أن عقيدة الأرواح لم تستغرق عبادات الأقدمين في زمن من الأزمان، فهذه لا تعدو أن تكون وجهة نظر، إن قال بها البعض فقد خالفها الأكثرون، ولقد أوضحنا رأينا في ذلك وحققناه في موضعه من هذا البحث بما لا يدع مجالًا لمزيد من الكلام فيه.

أطوار الدين الوضعي

تحت هذا العنوان سنحاول- بحول الله تعالى- أن نرتب الأطوار التي مر بها التدين الوضعي لدى الإنسان البدائي الهمجي الذي لم يتلقَّ دين الله الحق عن الرسل- صلوات الله عليهم أجمعين- لانعزاله في أحراش أو غابات، أو لفترة الرسل عنه، مع إيماننا بأن الإنسان الأول آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ قد جاء بالدين نبيًّا من قِبل الله رب العالمين.

إن المرحلة الأولى من أطوار التدين والاعتقاد لدى الإنسان البدائي كانت الطواطم أو عبادة الأسلاف، وذلك أمر طبعي؛ فالإنسان الذي آمن بالروح لم يعبد هذه الروح مجردة، وإنما عبدها حالَّةً في جسد حيوان أو شجر أو حجر- كما أشرنا إلى ذلك سلفًا- وكان يتقدم إلى هذه الطواطم بأنواع الشعائر والطقوس ترضيةً لأرواح الأجداد أو الأسلاف التي تحلها وتتلبس بها.

ويتضح من ذلك أن ثمة تلازمًا بين عبادة الروح والطواطم والأسلاف، فالإنسان آمن بالروح، وهذه الروح كانت روح جدِّه أو سلفه الأكبر الممتاز بخاصية ليست في غيره، وهو لم يعبد هذه الروح مجردةً، وإنما عبدها متلبسةً بجسم مادي بيئي أيًّا كان شكل هذا الجسم.

وبذلك يتضح لنا وجه هذه التلازم الذي ذهبنا إليه بين هذه ه الأمور الثلاثة التي هي: الروح، والطَّوطم، والجسد- أو السلف- والتي يخطئ الكثيرون

فيفرقون بينها على أساس أن كل واحدة منها تمثل طورًا خاصًّا بها في مراحل التدين والاعتقاد لدى الإنسان الأول، فذلك خطأ بيِّن؛ فالروح لا تمثل طورًا بمفردها في عبادات الأقدمين، لأن الإنسان القديم لم يعبدها مجردةً عن المادة على الإطلاق، وكذلك الطَّوطم لا يمثل طورًا بمفرده؛ لأن الطَّوطم في حد ذاته لا قيمة له ولا اعتبار، وإنما اكتسب هذه القيمة وذلك الاعتبار حين حلت فيه روح الجدِّ أو السلف الذي هو المعبود المقدس، وكذلك لم يعبد الإنسان أسلافه أجسادًا ميتة خالية من الروح، وإنما عبد الأسلافَ أرواحًا تتلبس بالمادة في شكل من أشكالها التي ذكرناها، والتي هي الطوطم.

ولقد عنينا ببيان هذه النقطة قبل أن ندخل في بيان أطوار التدين، حتى يبين لنا أن هذه الثلاثة المشار إليها إنما هي طور واحد ومرحلة مفردة، وليست ثلاثة أطوار أو ثلاث مراحل - كما هو المشهور عند كثير من علماء الأديان.

إن أطوار العقيدة الوضعية تنحصر عندنا في ثلاثة:

الطور الأول: عبادة الطواطم

عبادة الطواطم التي تحلها أرواح الأسلاف، وهي في نفس الوقت عبادة الأسلاف، وهي أيضًا عبادة الأرواح كما بينَّا ذلك آنفًا.

وهذا الطور هو الذي عمَّ المجتمعات البدائية في بداية تدينها.

وقد أثبت علماء الأديان أن شعائر التوتم قد وُجدت منتشرةً بين مئات القبائل الهمجية في كافة أنحاء العالم الذي عَمَرَه الإنسان قديمًا، في أستراليا Austrailia وإفريقية والأمريكتين والقارة الأسيوية وَجُزُرها، ولا تزال حتى الآن هناك قبائل كبيرة في هذه القارات تتخذ لها حيوانات تجعلها طواطم، وتزعم أن روح أبيها الأعلى قد حلَّ فيها.

ولذلك نرى كثيرًا من العلماء الأعلام في مجال الديانات يقرنون بين الطواطم وبين بداية الأديان الوضعية، ومن أتباع هذا الرأي أو من الرواد في هذا الرأي المدرسة الفرنسية، وعلى رأسها عالم الاجتماع الأشهر «دور كايم».

ولقد لقي هذا الرأي معارضةً، ووجِّه إليه كثير من النقود التي أهمها:

أن أتباع الديانة التوتمية قد وجدت لديهم شرائع تسمى الشريعة التوتمية، وهذه الشريعة على درجة من الرقي الاجتماعي والثقافة الفكرية لا يمكن أن تتفق للإنسان البدائي أو الهمجي، فهذه الشريعة تحتوي على قواعد ومبادئ وتعاليم خاصة بالزواج كتحريم التزاوج بين الذكر والأنثى الذين ينتميان لتوتم واحد.

ولذلك فالناقدون يرون أن هذه العقيدة التوتمية لم يعرفها الإنسان البدائي أولًا، ولم تكن المظهر الأول للتدين، وإنما وجدت لدى الإنسان عندما بلغ مبلغًا من الحضارة الاجتماعية، فعرف الزواجَ ورسم له قواعده وشروطه وما يحل فيه و ما يحرم.

وكذلك يُعترض على أولية هذه العقيدة بأنها وُجدت لدى قبائل تعتنقها وديانات غيرها، وأن آراءها وجدت لدى قبائل لا تعتنقها على الإطلاق.

وهذه نقود ضعيفة لا تحرجنا فيما ذهبنا إليه، ولا تخرجنا عن اقتناعنا بأن هذه العقيدة كانت الصورة الأولى من صور التدين، والطور الأول من أطوار الاعتقاد لدى الإنسان البدائي.

فإن وجود عقيدة الطواطم لدى قبائل على قدر من التحضر لا ينافي أولية هذه العقيدة لدى الإنسان البدائي، وكل ما في الأمر أن العقيدة التوتمية بدأت مع الإنسان البدائي، ثم ظلت معه تلازمه، وتنتظم اعتقاده، وتستأثر بإيمانه حتى ترقَّى وتحضَّر، أيًّا كان المدى الذي قطعه في سبيل هذا الترقي أو ذلك التحضُّر، وليس ما يمنع إطلاقًا أن يعتنق الإنسان عقيدة التوتم منذ بداوته الأولى، ثم يظل على عقيدته تلك حتى يترقَّى نوعًا من الرقي فيعرف الاجتماع، ويعرف شيئًا من تقاليد المجتمعات، وشيئًا من نظم الزواج وغيره.

ونحن لم نر أحدًا يحترم المنطق وذكاء الإنسان يذهب إلى أن تغيُّر العقيدة ملازم- ضرورةً- لتغيُّر العادات والأعراف، أو للتغير الحضاري والثقافة العامة، ولم يقل أحد إنه يجب على الإنسان أن يغيِّر دينه ومعتقده كلما بدا له أن يغير شأنًا من شئون الزواج أو شئون الأسرة، أو الشئون الحياتية على إطلاقها،

فالدين أرسب في عقل الإنسان وفكره، وأثبت في ضميره ووجدانه من كل ما عداه من عادات وأعراف. وكلُّ العادات والأعراف تتغير وتتحول داخل إطار الدين الواحد.

والأمثلة كثيرة:

فاليهود تنتظمهم ديانة واحدة، وفي ظل هذا الديانة انتقلوا من عادات وأعراف هي أقرب إلى البداوة، إلى مدنية القرن العشرين، والنصارى كذلك، والمسلمون أتباع دين واحد مع الاختلاف الكبير بين بعض عادات وأعراف المسلمين الأُول ومسلمي هذا العصر، بل بين عادات وأعراف البلاد المتنائية في العصر الواحد.

وليست المسألة على الخلاف بين الأديان الكتابية، فهذا المثال يشمل- أيضًا- الأديان الوضعية، فالديانة الكونفوشية والبوذية من بعدها حتى اليوم، وكذلك البرهمية، كل هذه الديانات يصلح فيها ما قلناه عن الأديان الكتابية.

ومثل ذلك يقال ردًّا على الاعتراض الآخر، فالعقيدة التوتمية ابتدأت طورًا أول لدى الإنسان البدائي المتدين، ثم ترقَّى هذا لإنسان، ونحن نبيح له- بحكم ترقيه- أن ينتقل من عقيدة إلى عقيدة، وأن يغير هذه العقيدة أساسًا، فمن باب أولى لا نمنع أن يدخل عليها بعض التعديلات على سعة هذا المعنى الذي يشمل إضافة أرباب وديانات أخرى ومزجها مع الديانة الأصلية، ويظل الإنسان على هذه الحال أثناء ترقيه وتحضُّره يضيف إلى دينه ومعتقده، وتكثر الإضافات وتتراكم حتى لا يبقى من الدين القديم إلا آثار ورسوم.

الطور الثاني: عبادة الظواهر الكونية

ننتقل بالإنسان البدائي المتدين بعد ذلك إلى الطور الثاني من الأطوار العقدية التي مر بها أثناء تدينه وهو: عبادة الظواهر الكونية والعناصر الطَّبَعِيَّة.

وتاريخ الإنسان مع عناصر الطبيعة يبدأ منذ يومه الأول على ظهر هذا الكوكب، فلقد قابل في مبدأ حياته من داجن العناصر عندنا اليوم وأليفه وحشًا هائلًا زرع في قلبه الرعب، وحصد من عينه النوم، وأكل من فواده الطمأنينة والأمن.

ولقد وُجد الإنسان الهمجي البدائي في هذا العالم يجهل عنه كل شيء، ولا يعرف عنه أي شيء، فاتخذ الكهوفَ مسكنَه، والحذرَ والترقبَ مأمنَه، وكأني به يجلس في كهفه، يعضه الجوع بنابه فيخرج من كهفه يتحسس طريقه في عالمه الغريب المبهم، وإذا هو يفاجأ بِدَوِيِّ الرعد يصم أذنيه فيعدو سريعًا إلى كهفه، ويلح عليه الجوع الذي لا يرحم فيتسلل ثانية وإذا لمع البرق يخطف بصره، ويعدو سريعا إلى كهفه يتترَّس به، ثم يخرج ثالثة فيفعل به الريح والعواصف ما فعل الرعد والبرق، وقل مثل ذلك عن المطر، والنار والبحر، والحيوانات المفترسة، إلى غير ذلك مما تحتوي عليه الطبيعة من عناصر- إن بدت لنا اليوم مألوفة والخوف منها شاذًّا- فلقد كانت تحيل قلوب أجدادنا الأُول شعاعًا من الرعب والهلع، والرهبة والفزع.

ويظل الإنسان على خوفه ورعبه، فيصحو على الرهبة والحذر، وينام على

الترقب والفزع، وبينما هو نائم والخوف ملء جوانحه، إذ يرى أسلافه يزورنه في الأحلام، فيحس من زيارتهم بالطمأنينة تشيع من حوله، وبخاصة حين يراهم ممتلئين أمنًا وسكينة، لا يخافون شيئًا ولا يرهبهم شيء، يتحركون بسهولة وانطلاق، ويسيرون وسط الأحراش والوحوش والظواهر المفزعة دون ما خوف أو وجل.

ومن هؤلاء الأسلاف الذين يزورونه في أحلامه أبطال شجعان أثبتوا فُتوتهم وقوتهم في حوادث مشهورة، جعلت بقية الأفراد في الجماعة يُكبرونهم ويُجلونهم لهذه البطولة وتلك القوة في مجتمع يقوم على القوة وعلى قانون «البقاء للأقوى»، ومنهم كذلك آباء له وأجداد ذوو خبرة وتجربة في مزاولة الحياة، كان يركن إليهم في الشدائد فيمدونه بالمساعدة والمؤازرة، ويزودونه بالنصح والمشورة.

لذلك لم يلبث الإنسان حين رأى هؤلاء في أحلامه أن تَعَلَّق بهم بملء قلبه ومشاعره، وهو يحس من هذا التعلق بالأمن والطمأنينة، وكأنه حين يعبدهم ويقدسهم إنما يترضَّاهم ويتملَّقهم ويطلب منهم العون والمساعدة في صورة من التذلل والخضوع.

ولم يزل هذا شأن التعبد في كل زمان ومكان، يعتمد على الشعور بالحاجة إلى العون والمساعدة في مجراها ومرساها، لا جرم أن نشاهد دائمًا أن العبادة تزدهر وتنفق سوقها حين يُظلِّلُ الناس شبح الشدائد والملمات، والعكس صحيح تمامًا، فإن هذه السوق النافقة إبَّان الأزمات لا تلبث أن تكسد حين يعم الأمن وتشيع الرفاهية في مجتمع الإنسان.

ولعل هذا ما يتفق تمامًا مع الخبر المعصوم في قول الله- تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٧].

وفي قوله- تبارك وتعالى- تمثيلًا لهذا المعنى في حالتي الطرد والعكس:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٢٢ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٢-٢٣].

وكان هذا هو الطور الأول الذي أشرنا إليه، طور عبادة الطواطم، أو الأرواح، أو الأسلاف، هذا الثالوث المتلازم الذي لا ينفك واحد منه عن أخويه في صور العقيدة- كما أبنَّا ذلك في مكانه من البحث.

ولكن الإنسان الذي تزداد تجاربه وخبراته عن الكون حوله بعناصره التي منها الرياح والعواصف، والسحب والأمطار والرعود، والبحور، والكواكب والنجوم، والشمس والقمر، وبازدياد خبرات الإنسان ومعارفه عن الكون حوله يبتدئ فكرُه ينخلع بعيدًا عن آلهة الوسائد وأرباب الرؤى، ليضيف إليها آلهة هي من عناصر الطبيعة وظواهر الكون أو من وحيهما.

ولأن التغيير في الديانات لا يأتي طفرة واحدة إلا في الثورات الدينية الكبرى التي لا تقع إلا في الرسالات الإلهية التي تأتي على أنقاض الديانات الوضعية، فلقد ابتدأ التحول من عبادة الطواطم إلى عبادة العناصر الطبيعية أو الظواهر الكونية بالتدريج، وذلك بإضافة هذه الظواهر إلى عقيدة الطواطم ومزجهما معها، وخلق خليط من عقيدة العناصر وأرواح الأسلاف، فقد ينقل الإنسان

عبادته لروح سلفه في طوطمه إلى عنصر من عناصر الطبيعة، ويمازج بينهما، وبمضي الزمن تندمج الواحدة منهما في الأخرى، ولا يبقى منهما إلا عقيدة واحدة لا أثر فيها لأصلها المختلف ولا أساسها الشتيت.

ولنأخذ لذلك مثلًا المعبود المصري «أوزيريس» وهو المعبود الذي ابتدأت عبادته في مصر ثم انتشرت حتى شملت أكثر بقاع العالم المعمور قديمًا.

والأستاذ العقاد ينقل لنا تاريخ هذا الإله فيقول: «إن الثابت أن أوزيريس هذا جدٌّ قديم في مصر الوسطى، وأنه عاش عيشة عادية، ولا بد أنه قد كانت له بعض المميزات التي جعلت المصري يقدسه دون غيره، ولما مات هذا الجد قدَّسه أبناؤه وأحفاده، ولكنا نجد أيضًا أن أوزيريس هذا اسم من أسماء الشمس حين تغرب في عالم الأموات، كما كان المصري القديم يطلق على مكان غروب الشمس.

ثم أصبح اسم أوزيريس فيما بعد علمًا على الشمس في كل أحوالها وجميع منازلها، لا يختص ذلك بوقت الغروب كما كان قبل حين»[1].

وذلك مثال واضح لتطور الديانة من عبادة أرواح الأسلاف في الطواطم إلى أن ترقَّى الإنسان فعبد الشمس، ولكنا نلاحظ أنه لم يتحول عن عبادة الأسلاف جملةً وبصورة فجائية، ولكنه مازج بينها وبين ظاهرة الشمس، فحوَّل روح جده من الطوطم إلى الشمس السيارة، ثم وبالتدريج نسي روح جده أو سلفه، وتعلق بالظاهرة الكبرى وهي الشمس الإله الجديد في الطور الجديد في سلسلة الديانة الإنسانية الوضعية، وبذلك ينتقل الإنسان إلى الطور الجديد، ولا يبقى من القديم إلا آثار تدل عليه، وتوحي به.

---

(١) الله، لعباس العقاد، (ص١٨).

ومما تجدر الإشارة إليه أن عبادة الظاهرة الكونية ليست طورًا واحدًا، وإنما هي في حد ذاتها أطوار متعددة وصور متكثرة، كل ما سبق منها يُسْلِم إلا لاحقه في سُلَّم من الدرجات منتظم ومتناسق، يحكمه في هذا الانتظام وذلك التناسق طبيعة الإنسان وقرب الظاهرة الكونية من إدراكه أو بعدها عنه، وسهولة إدراكها أو صعوبته.

وذلك أمر طبعي ما دام أمر التدين والاعتقاد خاضعًا لترقي الإنسان في فكره وخبراته بالكون الذي يعيش فيه، فالظواهر الطبعية ليست على درجة واحدة في القرب من مدارك الإنسان وإحساسه بها، والإنسان في إدراكه إِيَّاهَا وللدور الذي تقوم به في حياته لا يسير على نسبة واحدة، ولا مقدار متماثل، وإنما يدرك الإنسان من ظواهر الكون ما يقرب منه أولًا، ثم يترقى إلى البعيد ثم إلى الأبعد وهكذا، تبعًا ليسر إدراكه إياها أو صعوبته، وتبعًا لقوة تأثيرها في حياته أو ضعفه، وتبعًا لقربها من عالمه أو بعدها عنه.

فمن العوامل التي تساعد على إدراك الإنسان عنصرًا من عناصر الطبيعة التصاقه به وقربه منه، كالريح والمطر، وكذلك قوة تأثيره في شعوره وشدة وقعه على وجدانه كالرعد والبرق والعواصف والزوابع.

ثم يترقى الإنسان من ذلك الطور في فكره وثقافته فيتأتى له أن يرفع بصره إلى أعلى فيدرك الكواكب والنجوم، ثم يترقى فيدرك القمر، ثم وفي آخر أطوار الظواهر الكونية وفي نهاية المطاف كله تأتي عبادة الشمس؛ لأنها آخر ما يمكن أن يدرك الإنسان لبعدها عنه، وصعوبة إدراك آثارها في حياته بخلاف القمر والكواكب السيارة.

فالإنسان عبَد من عناصر الطبيعة الرياح والأمطار والعواصف والرعود والبروق، ثم عبَد النجوم والكواكب السيارة المعروفة ثم جاءت بعد ذلك عبادة القمر ثم الشمس.

ولقد عبد الإنسان القمر قبل أن يعبد الشمس بزمان طويل؛ ذلك أن القمر ذو شأن لا يجهل لدى الإنسان، فلقد كان من السهل لدى الإنسان الأول أن يدرك العلاقة بين الدورة القمرية والدورة الشهرية لدى المرأة؛ ولذلك ربط الإنسان بين القمر وبين الحيض والولادة لدى المرأة، ومن هنا سبقت عبادةُ القمر عبادةَ الشمس.

أما عبادة الشمس فكانت آخر هذه المراحل جميعها، لأن عبادة الشمس تستلزم الإحاطة بدورها في حياة الإنسان ومدى تأثيرها في هذه الحياة وتوجيهها إياها، وذلك يتطلب نظرة فلكية محيطة بالكون كله، وإدراك تأثير الشمس في حياة الإنسان وأثرها في هذا الكون يتطلب نوعًا من الثقافة لا يتوافر لدى الإنسان إلا في مرحلة متأخرة حين تنمو مداركه وتزداد معارفه، حتى يستطيع أن يدرك تأثير الشمس في إنبات الزرع، وتسيير الرياح وسقوط الأمطار، وتقلب الأيام والأعوام، وعلاقتها بالفصول، وأثرها في برودة الجو وسخونته، وارتباطه بالكواكب السيارة من حولها، إلى آخر ما للشمس من آثار، وما أكثرها!

ولأن هذه الأمور على درجة من التعقيد، نرى أن الإنسان البدائي لم يدركها إلا في مرحلة متأخرة نسبيًّا، وإذًا فلقد كانت الشمس آخر مظهر من مظاهر الكون عبده الإنسان البدائي ودان به، بل إنه ليوجد حتى اليوم أناس يدينون لها بالعبادة ويحصرون اعتقادهم فيها.

ومن الملاحظ أن الديانة الشمسية كانت هي المرحلة السابقة لطور التوحيد مباشرة، فالإنسان البدائي في رحلته الدينية انتقل مترقيًا من طور إلى طور أرقى منه حتى وصل في النهاية إلى التوحيد الكامل المطلق المنزَّه عن غواشي الشرك وشوائب التعدد، وهو في رحلته هذه كلما انتقل إلى طورٍ ورضي به واطمأن إليه، لا يلبث بعد قليل أو كثير من الزمان أن يكتشف أنه على ضلالة، وأن هناك ما هو أحق بدينونته وعبادته من هذا الذي هو عليه، ومن ثم لا يلبث أن يتحول- وبالتدريج كما أشرنا- إلى الطور الجديد، وينتقل بذلك المعبود السالف من جملة العلل إلى جملة المعلولات، فإذا ما وصل الإنسان إلى الشمس فإنه يكون قد وصل إلى أكبر ظاهرة تقع عليها عيناه في هذا الكون كله، وهي في ذات الوقت أكبر شيء يمكن أن يُتخذ إلهًا من جملة ظواهر هذا الكون المادي الذي يعش فيه، فهي آخر طور من أطوار الترقي العقدي لدى الإنسان في سلسلة الآلهة الوضعية الكونية، فإذا وصل الإنسان بعد زمان إلى مرحلة من الرقي الفكري والعقدي بحيث يرى بطلان عبادة الشمس، وزيف ألوهيتها، وضلال عقيدتها، وتحولت الشمس بذلك الترقي في فكر الإنسان وعقيدته من جملة العلل إلى جملة المعلولات هي الأخرى، فإن هذا الكون المادي الملموس والمحسوس يكون قد تحول بذلك إلى معلولٍ بأجمعه، ولا علة له من داخله على الإطلاق؛ إذ تحول أكبر شيء فيه يصلح علة إلى معلول هو الآخر، وبذلك لا يكون ثمة بُدٌّ من التماس علة لهذا العالم من خارجه، بعد أن فشلت كل ظواهره في الاستواء على هذا العرش وملء هذا الكرسي، ولا بد من أن تكون هذه العلة الجديدة من معدن غير معدن هذا العالم، ومن عنصر غير عناصره.

وفي هذه المرحلة تكون هداية الله قد اقتربت من الإنسان، وتكون رحمة الله قد تأذنت أن تهديه من أمر عقيدته سواء السبيل.

تلك العقيدة التي تنحصر في عبادة الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي جل عن الوالد والولد، والذي ليس معلولًا لشيء، بل هو الخالق البارئ المصور لكل شيء، فهو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

ومن الأمور ذات المغزى الكبير في هذا المقام أن نذكر أن هذا الذي ذهبنا إليه يتفق تمام الاتفاق مع قصة سيدنا إبراهيم- عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام- في القرآن الكريم، والتي أوضحت منهجه الاستدلالي على وجود الإله الأحد المنزه عن غواشي المادة وشوائب الشرك.

فلقد اتخذ عَلَيْهِ السَّلَامُ ربه أولًا كوكبًا من الكواكب؛ تنزُّلًا مع الوثنيين حتى يلزمهم الحجة، ثم ترقى درجة فاتخذ القمر إلهًا، ثم ترقى فاتخذ الشمس إلهًا، ولكن الشمس أَفَلَت في قلبه حين أفلت في عينه، ولم يكن ثمة في الكون أعظم منها تقع عليه عيناه حتى يجعله إلهًا، ومِن ثَم فلقد بطل أن يكون الكون كله إلهًا حين بطلت صلاحية الشمس لذلك.

ومِن ثَم فقد انتقل منها مباشرة إلى الدينونة الحقة للإله الحق الذي خالف الظواهر الكونية كلها، فلا تبصره الأبصار، ولا تحسه الحواس، ولا تلمسه اللوامس.

يقول تبارك وتعالى- إخبارًا عن هذا المنهج الإبراهيمي في الاستدلال على الإله الحق:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٰٔفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ

ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام:٧٦- ٧٩].

ومما تجب ملاحظته أن هذه لم تكن عقيدة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الحقة، فلم يكن يعتقد هذا، ولم يعبد الكواكب، بل كان يدين لله رب العالمين، ولكنه منهج سلكه لإظهار فساد عقيدة قومه التي تقوم على عبادة الكواكب، وليقيم عليهم الحجة؛ ولذلك قال الله تعالى:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ [الأنعام: ٨٣].

الطور الثالث: عبادة الإله المفارق

والطور الثالث من أطوار العقيدة لدى الإنسان هو طور عبادة الإله المفارق.

وعبادة إله مفارق لهذا العالم، خارج عن عناصره وظواهره جاءت مرحلة أخيرة، بل جاءت المرحلة الأخيرة في سلسلة المراحل والأطوار العقدية لدى الإنسان البدائي المتدين، بعد التدرج المشار إليه سابقًا على مدى الأطوار الآنفة.

ولقد توصل الإنسان إلى عبادة الإله المفارق من طريقين:

الأول: طريق التفكير العقلي الخالص بعد أن جاز العقل كل هذه الأطوار، ومر بكل ما يمكن أن يسند إليه الألوهية، وجرب الأرواح والطواطم والعناصر الطبعية والظواهر الكونية على اختلافها، وبعد أن فشلت كل هذه الأشياء في أن تحوز ثقته وأن تتربع على عرش عقيدته، ترك العالم المادي بكل ما تجيش به أرضه وسماؤه، إلى عبادة الإله الحق المفارق لهذا العالم بكل ما يدبُّ على ظهر أرضه وما يدور في أفلاك سمائه.

وإله هذا الطور مر بمراحل كثيرة بعد الإيمان بمفارقته هذا العالم حتى وصل إلى صفات الألوهية الصحيحة، فلقد تخيله العقل الإنساني على مثال الإنسان فخلع عليه كثيرًا من صفاته وأحواله وهيئات معاشه وحياته، فكان يأكل ويشرب، ويتزاوج، ويحب ويبغض، وكانت له- بالجملة- أهواء إنسان وشهواته، وكانت له أخطاؤه وإصاباته.

ثم ترقى العقل البشري تدريجيًّا في تنزيه إلهه حتى وصل به إلى درجة من التنزيه والسمو والجلال فُتن بها أصحاب الديانات الكتابية، حتى إنهم انتزعوا كثيرًا من صفات الإله العقلي وخلعوها على الإله الحق دون حق، وكان هذا خطأ وضلالًا بكل المقاييس.

الثاني: طريق الرسالات الإلهية، والتي كانت على امتداد الزمان كله مصدرًا لنور الهداية وسط دياجير الظلام، وبين حين وآخر كانت عناية الله تنظر إلى الأرض بعين الرحمة والهداية فتبعث إليها بقبس من نور الله، فيبدد حجب الظلام في قلوب العباد وعقولهم، ويظل يأخذ بزمامهم إلى محجة بيضاء ليلها كنهارها، حتى يتقادم العهد، ويطل العقل الإنساني برأسه، وينزف من جهالاته وضلالاته وأوهامه على صفحة الدين الإلهي الناصعة، فيحيلها إلى محجة سوداء نهارها كليلها، فيحرِّف من الدين بقدر ما يتدخَّل فيه، ويضل عن هداه بقدر ما يفرز عليه من أوهام بيئته، وضلالات ثقافته، وجهالات حضارته، ثم لا يلبث بعد حين آخر أن تندثر التعاليم الطاهرة النقية لتحل محلها خرافات مدنسة خبيثة، وتَمْحُو عن قلب الإنسان بصمات السماء المعصومة، لتحل محلها بصمات الأرض الموصومة، ويندثر الدين الإلهي لتنتشر الديانة الوضعية، ولتسير في طريقها على ما رسمناه وأوضحناه.

وعبارة: «لتنشر الأديان الوضعية» ليست على إطلاقها.

لأن الأديان الوضعية حين تفارق الصنمية لا تعود إليها ثانية، ولكن تظل مستمسكة بدين الله ظاهرًا، لكنها تخلطه بكثير من شعائر وعقائد الصنمية، رغم اسْتمساكها ظهرًا بدين الله، أو برسالة بنيها الذي أرسله الله- تعالى- إليها، ونأمل- بحوله تعالى- أن نوف الموضوع حقه في موضعه من البحث.

العقيدة الوضعية بين التعديد والتوحيد

ما ذكرناه كان ترتيبًا للأطوار العقدية من حيث المعبودات ذاتها، أما من حيث الكثرة والقلة، أو التعدد والوحدة فعلماء الأديان يفرقون بين ثلاثة أدوار مر بها الإنسان البدائي في رحلته مع التدين والاعتقاد:

الأول: دور التعدد.

الثاني: دور التمييز والترجيح.

الثالث: دور الوحدانية.

ففي دور التعدد كانت القبائل الأولى تتخذ لها أربابًا تعد بالعشرات، وقد تتجاوز العشرات إلى المئات، ويوشك في هذا الدور أن يكون لكل أسرة كبيرة رب تعبده أو تعويذة تنوب عن الرب في الحضور وتقبل الصلوات والقرابين.

وفي الدور الثاني: وهو دور التمييز والترجيح تبقى الأرباب على كثرتها، ويأخذ رب منها في البروز و الرجحان على سائرها، إما لأنه رب القبيلة الكبرى التي تدين لها القبائل الأخرى بالزعامة، وإما لأنه يحقق لعباده مطلبًا أعظم وأخطر من المطالب التي تحققها الأرباب الأخرى.

وفي الدور الثالث: وهو دور الوحدانية تتوحد الأمة فتجتمع على عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب في كل إقليم من الأقاليم المتفرقة، ويحدث في هذا الدور أن تفرض الأمة القوية الغالبة عبادتها على الأمة المغلوبة، كما

تفرض عليها سيادة تاجها، وصاحب عرشها، ويحدث أيضًا أن ترضى الأمة المغلوبة الخضوع لإله الأمة الغالبة فتعبده مع الإبقاء على آلهتها كبقاء التابع للمتبوع، والحاشية لذلك المَلِكِ المطاع.

ولا تصل الأمة إلى هذه الوحدانية الناقصة إلا بعد أطوار من الحضارة تشيع فيها المعرفة، ويتعذر فيها على العقل قبول الخرافات التي كانت شائعة في عقول الهمج الأولين، وكثيرًا ما ينفرد الإله الأكبر في هذه الأمم بالربوبية الحقة، وتنزل الآلهة الأخرى إلى مرتبة الملائكة أو الأرباب المطرودين من الحظيرة السماوية.

هذا ما نقله العقاد عن علماء المقابلة بين الأديان.

ولنا أن نتساءل: أليس الأصوب في هذا التقسيم أن يكون ثنائيًّا بدلًا من التقسيم الثلاثي؟ وهل يتأخر دور التمييز والترجيح إلى المرتبة الثانية؟ أو أن التمييز والترجيح موجودان ابتداءً من الدور الأول؟

على معنى أن الإنسان الأول عرف التمييز بين الأرباب، وترجيح رب على بقيتها منذ عرف الأديان متعددة متكثرة، إننا- بلا تحفظ ولا تحرج- لا نملك إلا أن نرفض هذا التقسيم الثلاثي ونثبت بدلًا منه التقسيم الثنائي الذي أشرنا إليه؛ وذلك اعتمادًا على موضوعية التاريخ وتساوق الأحداث، واحترامًا للعقل، واعترافًا بحقه في النظر والاستقراء، ثم في الاستنباط والاستنتاج.

وكل هذه الأمور تجمع على أن الإنسان البدائي عرف التمييز والترجيح بين الأرباب منذ عرف الأديان في تعدادها وكثرتها.

إن طبيعة الإنسان- عند العارفين بطبيعته- أنه لا يملك المساواة المطلقة بين الأشباه والنظائر، وأن الشيئين في المضمار الواحد، لا يمكن أن يجدا لدى

الإنسان صدًى متماثلًا، أو يحتلًّا من فكره وقلبه منزلة واحدة.

والإنسان لم يعرف في لغة من لغاته لفظًا يدل على المساواة التامة بين شيئين على الإطلاق، وكلمتا: الأشباه، والنظائر، وغيرهما مما يمثلهما في اللغة، لا تدلان على المساواة المطلقة، بل إنهما قبل أن تدلا على المساواة؛ فإنهما تدلان من باب خلفي أو بأسلوب ضمني على الاختلاف والمغايرة.

ولو أننا ناقشنا هؤلاء فيما ذهبوا إليه لأخرجنا الدليل على ما نقول من ثنايا مذهبهم نفسه.

فهم يذهبون إلى أن القبائل في الدور الأول تتخذ لها أربابًا تعد بالعشرات بل بالمئات، ويعللون كثرة التعدد هذه بأن كل قبيلة أو أسرة كبيرة كان لها رب تعبده أو تعويذة تنوب عن الرب في تَقَبُّل الصلوات والقرابين، ثم يذهبون إلى أن القبائل متى اجتمعت فرضت القبيلة القوية إلهها ومعبودها على القبيلة الضعيفة.

ولنا بعد ذلك أن نسألهم: هل في دور التعدد الذي كان السبب فيه كثرة الأسر والقبائل كانت الأسر كلها على درجة واحدة من الضعف أو درجة واحدة من القوة، بحيث إن كل أسرة كانت تهتم بمعبودها فقط، ولم تفرض فيها أسرة معبودها على الأسر الأخرى التي تعيش معها؟

إنكم ذهبتم إلى أن الأسرة القوية تفرض معبودها على الأسر الضعيفة الأخرى، وهذا من أسباب التمييز والترجيح، فهل في دور التعدد الذي لم يكن فيه تمييز وترجيح كانت الأسر كلها متساوية في القوة أو الضعف؟

أليس منطق العقول مع موضوعية التاريخ يؤكدان أنه ما اجتمعت أسر وقبائل إلا كان من بينها القوية المسيطرة، والضعيفة المستذَلة، وهذا يحدث في

عصورنا الحديثة بين الدول، على ما يمتاز به هذا العصر من مدنية وتحضر، فما بالكم بعصور الهمجية التي كان الحكم فيها للناب والظفر.

وكذلك ذهبوا إلى أن من أسباب التمييز أن يكون أحد الأرباب قائمًا بمطلبٍ له خطره وأهميته في حياة الإنسان الأول أكثر من المطالب التي تقوم عليها الآلهة الأخرى.

ولنا أن نتساءل أيضًا: وهل كانت المطالب كلها على درجة واحدة من الأهمية والخطر في حياة الإنسان الأول في دور التعدد الذي سبق التمييز والترجيح؟ ومن ثَمَّ فقد تساوت الآلهة، فلم يحدث هناك تمييز ولا ترجيح، ثم فجأة حصل هناك تفاضل بين المطالب على غير سابق عهد، فامتاز بعضها بالهوان وبعضها بالخطر، فأدى ذلك إلى التمييز الذي لم يكن موجودًا من قبل؟

أليس المنطق يؤكد أن حاجات الإنسان ومطالبه كانت منذ وجدت وما تزال متمايزة ومختلفة، فمنها المهم، ومنها غير المهم، ومنها ما هو أخطر وأعظم من سواه.

أليس من حقنا بعد ذلك أن نؤكد أن التمييز والترجيح- بناء على ما أوضحنا- قد وُجِدَا منذ وجدت للإنسان أديانٌ متعددة وآلهة متكثرة؟

أما بعد:

فإن التمييز والترجيح بين الأسباب وُجِدا لدى الإنسان البدائي الهمجي منذ عبد الإنسان الآلهة عديدةً وكثيرةً، وليس ذلك لسبب واحد أو سببين، بل لأسباب كثيرة نكتفي منها بما أشرنا إليه، وقد ظل هذا التمايز والترجيح يأخذ طابعه المحدَّد، وشكله المبلوَر، حتى هدى الله الإنسان إلى عقيدة التوحيد.

وإذا كان الإنسان البدائي الذي لم يأخذ دين الله عن رسل الله، لم يصل إلى عدوة التوحيد إلا بعد أن مر بعدوة التعديد، فلقد ظل طوال تاريخه مع التدين مشدودًا إلى هذه العقيدة- عقيدة التوحيد- وهذا ما نريد إثباته وتوكيده، وما نزعة التمييز والترجيح إلا صورة تتبلور وتتركز حتى خرجت عن غموض التعديد إلى صريح التوحيد.

ونحن لا نجهل ذلك الوازع الذي حدا بالإنسان إلى أن يبحث عن التوحيد ويحتال له، ويستمسك به بشكل أو بآخر حتى في عصور بدواته الأولى.

فتلك:

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

المبحث الخامس

الدين الحق

- رسالة محمد ﷺ هي الإسلام
- العقيدة والشريعة
- أنواع الغيب.

الدين الحق

لقد مرَّ بنا أن الدين الوضعي متعدد، وأن الأديان التي اخترعها العقل البشري لا تكاد تحصى، وذلك أمر طبعي، وليس عجيبًا ولا غريبًا، بل العجيب الغريب ألا يكون الأمر كذلك، فالأمر الذي يدعو للعجب ألا تكون الأديان الوضعية متعددة وكثيرة، مع كثرة مَن اخترعوها وأنشئوها.

فالدين الوضعي مِن اختراع أفراد من الناس، والناس يختلفون في الطباع، ويختلفون في القوى العقلية، ويختلفون في الأمزجة النفسية، ويختلفون في البيئات الاجتماعية والطبعية، ويختلفون في الاستجابات للمؤثرات الخارجية، أو في ردود الأفعال تجاه الأحداث البيئية التي تقع لكل منهم.

والدين الوضعي- كما بيَّنَّا- صناعة إنسانية ونِحلة بشرية، والإنسان ظل على مدى تاريخه يخترع الأديان الوضعية، وفي كل عصر ومصر تنشأ نِحَل ومذاهب، لا تجمعها مع غيرها من النحل السابقة أو اللاحقة جامعة.

وإذن؛ فقد تعددت الأديان الوضعية، وتكثرت النحل البشرية، وما كان لها أن تتحد أو تتفق، وما كان لها إلا أن تتعدد وتختلف ما دامت صناعة إنسانية، وما دام الإنسان يختلف من زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان، بل إنه ليختلف في الزمان الواحد والمكان الواحد عن الذين يشاركوه زمانه ومكانه، بل إن الفرد الواحد من أفراد الإنسان ليختلف على نفسه من زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان، يرى اليوم ما كان ينكره أمس، وينكر غدًا ما قد رآه اليوم، ومثل

ذلك يفعل إذا اختلفت عليه البيئة، أو تغير به المكان.

أما الدين الحق فهو واحد، لا كثرة فيه ولا تعدد، ولا اختلاف فيه ولا تعارض، ولا تضارب فيه ولا تناقض.

ووحدة الدين الحق أمر طبعي؛ فإذا كان من الحق أن يتعدد الدين الوضعي ويتكاثر، ويختلف ويتنافر، فإنه من الحق الذي لا ريب فيه أن الدين الحق واحد، وأنه لا تناقض فيه ولا اختلاف؛ لأنه من عند الله الواحد سبحانه.

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

ولأن الله ﷻ هو خالق الإنسان فهو سبحانه يعلم ما يصلح شأن الإنسان، وما يستقيم مع فطرته التي فطره عليها، ثم إنه ﷻ حين يختار ما يصلح شأن الإنسان من الدين لن يخطئ في الاختيار كي يضطر بعد ذلك إلى أن يغير- جلَّ الله عن ذلك- لأنه سبحانه بكل شيء خبير، وبما يصلح شأن الناس بصير، لكل هذا كان الدين الحق الذي أنزله الله سبحانه على أنبيائه ورسله دينًا واحدًا.

وفي إطار هذا الدين الواحد بعث الله تعالى رسلًا كثيرين، كلَّفهم برسالات، وأنزل عليهم كتبًا، كل هذه الرسالات وتلك الكتب جاءت بدين واحد، هذا الدين الواحد هو الإسلام.

فالإسلام هو دين الله الحق من يوم أن خلق الله الأرض ومن عليها إلى أن يرثها ومن عليها، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

ويقول ﷻ:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فالإسلام هو دين الله الذي ارتضاه لعباده، وبعث جميع رسله مؤمنين به، داعين إليه.

فلقد كان آدم مسلمًا يدعو إلى الإسلام، وكان نوح مسلمًا يدعو إلى الإسلام، وكان إبراهيم مسلمًا يدعو إلى الإسلام، وكان موسى كذلك، وكذلك كان محمد- عليه وعليهم جميعًا صلوات الله وسلامه.

فهذا أبو الأنبياء إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل عليهما السلام يتجهان إلى ربهما مبتهلين:

﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [البقرة: ١٢٨].

ويأخذ الخليل العهد على أبنائه أن يظلوا من بعده مسلمين، ومثل ذلك فعل يعقوب عليه السلام، يقول- تعالى-:

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وهذا يعقوب أو إسرائيل- الذي يدعي اليهود أنهم أتباعه- لم يكن يهوديًّا ولم يدع إلى يهودية، وإنما كان مسلمًا يدعو إلى الإسلام، ويوصي أبناءه أن يظلوا من بعده مسلمين، يقول سبحانه:

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣]

وهذا يوسف عليه السلام مسلمٌ، يدعو ربه أن يختم له بالإسلام، ويبتهل إلى ربه قائلًا:

﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١].

وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مسلم يدعو إلى الإسلام، فيستجيب له السحرة ويبتهلون إلى ربهم قائلين:

﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

وهذه بلقيس لما رأت نعمة الله وعظيم فضله على سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ هتفت قائلة:

﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وهذا عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي ينتسب إليه النصارى كذبًا وافتراءً، لم يكن نصرانيًّا يدعو إلى نصرانية، ولم يأت بدين جديد ليسمى باسمه افتراءً، فيقال: المسيحية، وإنما جاء المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ مسلمًا يدعو إلى الإسلام، فيستجيب له الحواريون ويشهدونه على إسلامهم، يقول ﷻ:

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

وهذا خاتم الأنبياء محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول له ربه:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وإذا كان دين الله واحدًا هو الإسلام، فما أشد كذب هؤلاء الذين ينسبون أنبياء الله إلى اليهودية أو النصرانية، في حين أنهم جميعا مسلمون، يقول تعالى:

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠].

فليس في الأنبياء يهودي، ولا نصراني، وإنما هم جميعًا مسلمون، أنزل الله عليهم الإسلام ليؤمنوا به، ويدعوا إليه؛ لذا كنا مأمورين بأن نؤمن بهم جميعًا،

وبما أنزل عليهم من قبل الله سبحانه، يقول ﷻ:

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

دين الله إذن واحد وفي إطار هذا الدين الواحد بعث الله سبحانه رسلًا كثيرين، أنزل عليهم رسالات عديدة، ليقيموا الناس على طريق الله تعالى، والقرآنُ الكريمُ يوضح وحدة الدين عند الأنبياء جميعًا فيقول:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

رسالة محمد ﷺ هي الإسلام

أوضحنا فيما سبق أن الرسالات التي جاءت من قِبَل الله تعالى هي الإسلام، وأن كل الأنبياء إنما جاءوا مسلمين يدعون الناس إلى هذا الدين؛ الإسلام، إلا أن الإسلام أضحى وقفًا على رسالة خاتم الأنبياء محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ذلك أن رسالة محمد ﷺ قد جاءت فورثت الرسالات السابقة وهيمنت عليها، وأصبحت هي وحدها دينَ الله الحق الذي لا دين سواه، والذي يتحتم على كل صاحب دين من يهودية أو نصرانية أن يترك دينه الباطل ويدين بهذا الدين الخاتم، ويسلم له، ويسير تحت كنفه، فإن محمدًا خاتمُ الأنبياء، فلا نبي بعده، ورسالته خاتمة الرسالات، فلا رسالة بعدها.

يقول الله تعالى:

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨].

وكذلك لأن رسالة محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هي الدين الكامل الذي أراده الله لخلقه من الجن والإنس، من يوم أن خلق الأرض ومن عليها.

وإنما جاءت هذه الرسالة خاتمة؛ لأن الفترة السابقة عليها من تاريخ البشرية كانت بمثابة تمهيد لها، وإرهاص بها، وإنما كانت الرسالات السابقة هي الممهدة لها، المبشرة بها، وعندما كمل رشد الإنسانية، وأصبحت قادرة على تلقِّي الدين كاملًا،

وحمل الأمانة مستوفاة، أكمل الله لها الدين، وأتمَّ عليها النعمة.

يقول ﷻ:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

لهذا وجَّه الله تعالى الخطابَ إلى أهل الكتاب جميعًا من اليهود والنصارى، يحضُّهم على ترك ما هم عليه، واتباع ما جاء به خاتم الرسل ﷺ، مبينًا لهم أنه لا عذر لهم في ترك رسالة محمد ﷺ والتمسك بما هم عليه.

يقول تعالى:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩].

العقيدة والشريعة

يشتمل الإسلام على عقيدة وشريعة.

أما العقيدة فهي الجانب النظري في الدين، وهي جوهره وأساسه، وهي القاسم المشترك بين كل ما جاء من قِبل الله تعالى من رسالات، وهي عنصر الوحدة في هذه الرسالات.

والعقيدة في دين الله تنبني على ستة أسس، هي:

١- الإيمان بالله. ٢- وملائكته. ٣- وكتبه. ٤- ورسله. ٥- واليوم الآخر. ٦- والقدر.

وهذه الأسس واحدة في دين الله على اختلاف مراحل نزوله، فنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء يدعو إلى الإيمان بهذه الأسس، وإبراهيم كذلك.

والدين الذي جاء يدعو إليه موسى وعيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ينبني في عقيدته على نفس هذه الأسس بلا زيادة أو نقصان.

يقول الله- تبارك وتعالى- مشيرًا إلى هذه الأسس في آية البر:

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ويقول- تبارك وتعالى- مشيرًا إلى أن الدين الذي بعث به الرسل والنبيين إنما يقوم على أسس واحدة، وجوهره واحد، وحقيقته واحدة لا تختلف من نبي إلى نبي، وأن كل الأنبياء إنما جاءوا يدعون إلى دين واحد- يقول تعالى:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ [الشورى: ١٣].

والعقيدة الإسلامية تقوم على الإيمان بالغيب؛ لأن الأسس التي تقوم العقيدة الإسلامية على الإيمان بها غيب، بمعنى أنها مغيبة عن الإدراكات الحسية المادية، فلا يمكن للإنسان أن يدركها بحسه المجرد، ولا بآلة من الآلات التي تساعد الحس على إدراك بعض ما غاب عنه كمجهرات الصوت، أو مجهرات الأجسام الدقيقة، أو مقربات الأجرام البعيدة.

وأسس العقيدة الإسلامية- كما سبق وبينَّا- هي الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر.

والإيمان بهذه العقائد الإيمانية يعني التصديق اليقيني الثابت القطعي الذي لا يداخله الشك ولا يقبل الارتياب.

وهذا الإيمان لا يعني التصديق العقلي فقط؛ فإن التصديق العقلي لا يتوفر فيه الثبات أو اليقين، ولكنه عرضة للرد كما هو عرضة للقبول، ولذلك كان التصديق العقلي فقط لا يسمى إيمانًا.

أما الإيمان فهو تصديق بالعقل والقلب جميعًا، ورسوخ التصديق في القلب هو الذي يضمن له اليقين، ويوفر له الثبات، وبالتالي يصير هذا التصديق إيمانًا.

ويعني هذا أن الإيمان لا يقف عند حدود العقل، كالأخبار المتصلة بمشاكل

الحياة اليومية، والتي هي عرضة للتصديق كما هي عرضة للتكذيب.

كذلك لا يقتصر الإيمان على الاقتناع القلبي دونما دليل صادق من العقل، أو بصيرة هادية من الفكر.

ولكن الإيمان في الإسلام معنًى يتضافر في تكوينه وتحقيقه العقل والقلب جميعًا.

فالعقل يتلقى الخبر، ثم يمحِّصه ويزنه، فإذا وصل إلى مرحلة اليقين انتقل إلى محل اليقين وهو القلب، فالإيمان عملية يتعاون فيها العقل والقلب معًا، ويتواكب فيها الفكر والوجدان جميعًا.

فالإيمان في الإسلام يقوم على اشتمال الإنسان بكامله، وإشباع جميع طاقاته وملكاته، يستوي في ذلك جانب الإدراك الواعي وهو العقل، وجانب الإدراك الباطني وهو القلب.

العقيدة غيب كلها:

ورغم أن الحقائق الإيمانية ثابتة عقلًا وقلبًا، إلا أنها غير مدرَكة حسًّا؛ فهي مدركة عقلًا، ثابتة قلبًا، لكنها غائبة حسًّا ومادةً.

وهذا يعني أنه ليس بين الإدراك القلبي والعقلي والإدراك الحسي تلازم، بل بين الإدراكين انفكاك، فليس كل غائب حسًّا غائبًا عقلًا وقلبًا، وليس كل حاضر حسًّا حاضرًا قلبًا وعقلًا.

فقد يكون الشيء موجودًا حسًّا، لكنه مفقود أو غائب عقلًا وقلبًا وواقعًا، وذلك كحالات التوهُّم الكاذب والتخيل الفاسد، فكم من إدراك حسي هو خال من كل حقيقة، وذلك كما وقع من سحرة فرعون من سحرٍ هو في واقع أمره تخييل وإيهام، لا حقيقة له في واقع الأمر، وإن كان في عالم الحس وإدراك الحواس موجودًا حاضرًا.

وقد يكون الشيء غائبًا حسًّا، لكنه موجود عقلًا وقلبًا وواقعًا، وذلك كعالم الغيب وما فيه، وأظهر شيء في عالم الغيب هو العقائد الإيمانية، وتلكم هي الركائز التي ذكرناها قبلًا.

وكما أن الإيمان بالغيب هو أساس العقيدة في الإسلام، فإن الإيمان بالغيب أساس العقيدة في كثير من الأديان، أو هو كذلك في جميع الأديان الكتابية والوضعية مع شيء من التجوُّز.

إلا أن الغيبيات في الإسلام تختلف عنها في الأديان الأخرى، فهي في الإسلام لا ترهق العقل ولا القلب، ولا تقلق النفس ولا الضمير.

فليس في الإسلام غيبيات تناقض العقل، أو تخالف المنطق، أو تحيك في النفس، أو تزعج الضمير، وإنما الغيبيات في الإسلام غيبيات يرتاح إليها القلب والعقل جميعًا، وتسكن إليها النفس والضمير معًا، وتكاد من اطمئنان القلب والعقل إليها، وسكون النفس والضمير معها، أن تخرج من دائرة الغيبيات، لتسلك ضمن المشاهدات من المحسوسات والملموسات.

وأما الأديان الأخرى، فإن الغيبيات فيها تخالف العقل، وتهزأ بمبادئ المنطق، وتمزق النفس وتصيبها بما يشبه داء الفصام.

ودونما تمثيل: يكفي أن تنظر في عقائد أصحاب النِّحَل، فستجد عجبًا، فمن إله يبكي ويندم ويصارع عبدًا من خلقه فيصرعه العبد، إلى إله هو ثلاثة وهو واحد، ثلثه يتجسد بشرًا، ثم يموت ويدفن فلا يبقى من الواحد إلا ثلثاه، إلى إله هو بقرة تخور، أو قطة تموء، أو ثعبان يتلوى، إلى غير ذلك مما يشير إلى مرض لا ينفع معه طب، ولا يجدي معه دواء.

أنواع الغيب

والغيب في الإسلام نوعان:

الأول: غيب مطلق.

الثاني: غيب نسبي.

أما النوع الأول: وهو الغيب المطلق، فهو واحد، وهو: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالإله- جل وعلا- غيب مطلق، بمعنى أنه لم يخرج عن الغيب، ولم يتجرد عن الخفاء، فلم يدركه أو يطلع عليه سبحانه ملَك، ولا نبي ولا إنس، ولا جن، ولا شيء من خلقه إطلاقًا؛ لذا كان سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غيبًا مطلقًا.

يقول سبحانه في وصف ذاته:

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

أما النوع الثاني: وهو الغيب النسبي، فبقية الأسس العقدية.

فالملائكة غيب، ولكنهم ليسوا غيبًا مطلقًا، فقد رأى بعضُ البشر بعضَ الملائكة، فالأنبياء والرسل رأوا جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومريم أم المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رأت جبريل كذلك وَكَلَّمته، ولوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رأى جماعةً من الملائكة، وهم الذين أُرسلوا لإهلاك قومه، ومن قبله رآهم إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأحضر لهم طعامًا، كذلك رأتهم سارة زوج إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد ثبت أن كثيرين من البشر رأوا كثيرين من الملائكة.

وإذن، فالملائكة ليسوا غيبًا مطلقًا، فإن رؤية بعضِ البشر بعضَ الملائكة

يقطع هذا الاطلاق، ويجعل الغيب نسبيًّا.

ومثل ذلك يقال في الكتب؛ فنحن نؤمن بكثير من الكتب التي رُفعت أو فُقدت، ولكن ما يزال وسيظل- والحمد لله- بين أيدينا كتاب الله الفرقان، فكل قوم نزل عليهم كتاب رأوا هم ذلك الكتاب، فهو ليس غيبًا بالنسبة إليهم، وإن كان غيبًا بالنسبة إلى مَن لم يروه، وهذا معنى أن الغيب بالنسبة للكتب غيب نسبي.

ومثال ذلك يقال في الرسل؛ فنحن نؤمن برسل كثيرين أخبرنا الله تعالى بهم، وحدثنا عنهم، هؤلاء الرسل غيب بالنسبة إلينا، لكنهم بالنسبة لأممهم الذين بعثوا فيهم لم يكونوا غيبًا؛ فإن كل قوم بُعث فيهم رسول رأوه، وتحدثوا إليه، أو رآه مَن عاصره منهم.

فالرسل إذن غيب بالنسبة لمن لم يروهم، لكنهم ليسوا غيبًا بالنسبة لمن رآهم، وهذا معنى قولنا: إن الرسل غيب نسبي.

ومثل ذلك يقال في اليوم الآخر؛ حيث قد نقل رسولنا أحاديث ضَافِيَةً عن وقائع سوف تقع يوم القيامة، وعن أحداث سوف تكون، هي لم تقع بعد، لكن الله تعالى علم أنها ستقع، فنقلها على هيئتها التي سوف تقع عليها إلى رسوله ﷺ، فنقلها رسولنا إلينا، فأصبحت معلومة لنا.

ومثل ذلك يقال في القدر؛ فإن الشرع الشريف كتابًا وسنةً قد أخبرانا عن أقدار كثيرة هي في علم الغيب، ولكن الله تعالى أخبرنا بها، فأخرجها من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، حين أخبرنا بها، وذلك كأقدار العشرة المبشرين بالجنة؛ فإن السنة الشريفة كشفت لنا عن جانبٍ من القَدَر المغيب، فجعلته معلومًا لنا، وأخرجتْه عن غيبيته بالنسبة لهؤلاء المبشرين بالجنة، كذلك أخبرنا

القرآن عن قدر أبي لهب وكثيرين غيره، حين أخبرنا عما ينتظرهم في الآخرة، فكشف لنا عن جانب من الغيب، وهو قَدَر هؤلاء ومصيرهم يوم الحشر.

من أجل ذلك لم يكن القدر غيبًا مطلقًا، بل كان غيبًا نسبيًّا، حيث أخفى الله عنا ما شاء منه، وأخبرَنا وكشف لنا ما شاء منه.

ولأن الأسس التي يقوم عليها الإيمان كلها غيب، مطلق أو نسبي، كانت منزلة الذين يؤمنون بالغيب عند الله- تعالى- لا تدانيها منزلة؛ لأنهم المؤمنون حقًّا، وسواهم هم الكافرون، يقول تعالى:

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ١-٣].

ويقول ﷻ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [الملك: ١٢].

أما الشريعة فهي الجانب العملي في الدين، وهي فرع عن العقيدة.

وهذه تختلف في دين الله من نبي إلى نبي، يقول الله- تبارك وتعالى- مشيرًا إلى اختلاف الشريعة من رسول إلى رسول:

﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾ [المائدة: ٤٨].

وهذا الاختلاف في الشريعة لم ينتج عن ضرورة ذاتية في الدين نفسه، ولكنه أتى نتيجة لظروف الأقوام الذين نزل عليهم الدين، ونتيجة لاختلاف هذه الظروف، فلقد كانت البشرية في أول عهدها ساذجة، لا تستطيع أن تتلقى الدين كاملًا، أو تتحمل الأمانة مستوفاة؛ ولذلك كان من رحمة الله أن ينزل على كل أمة من الشريعة ما تطيق، وأن يكلفها من الأعمال ما يتفق مع ظروفها، وما يتواءم مع ما وصلت إليه من كمال.

وسار أمر الشريعة على هذا المنوال، كلما بعث رسول نزل عليه من الشريعة قدر أكمل وأتم من الشريعة السابقة، وما زال هذا أمر الشريعة، تسير قُدُمًا في طريق الكمال كلما اقتربت الإنسانية من كمال رشدها، حتى جاء الوقت الذي وصلت فيه الإنسانية أوج كمالها، فبعث الله إليها بخاتم رسله، ومعه أكمل الشرائع وأتمها، وأشملها وأعمها، بعث الله محمدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بشريعة الإسلام، وأنزل عليه قوله تعالى:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقد أشار الرسول الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى جملة العقيدة والشريعة في حديثه الصحيح، عندما أتاه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ في صورة رجل وجلس أمام الرسول ﷺ وسأله عدة أسئلة تناول فيها العقيدة والشريعة معًا.

قال جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ لرسول الله ﷺ: «ما الإيمان؟ فقال الرسول ﷺ: **الإيمانُ أن تؤمن باللهِ، وملائكتِه، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، واليومِ الآخرِ، وتؤمن بالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**».

ثم سأل جبريلُ: ما الإسلام؟ فقال ﷺ: «**الإسلامُ أن تشهدَ ألا إله إلا اللهُ، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا**».

ثم سأل جبريلُ: ما الإحسان؟ فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**الإحسان أن تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فإن لم تكنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠) ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المبحث السادس

ركائز العقيدة

١ - الله جل جلاله.

٢ – اليوم الآخر.

٣ – الملائكة.

٤ – الكتب.

١- الله جل جلاله

الذات الإلهية هي حقيقة الحقائق في الوجود، وهي الحقيقة المطلقة التي تستمد منها كل حقيقة وجودَها.

والذات الإلهية هي مصدر الخلق، ومصدر الرزق، ومصدر الفعل إن كان فعل، ومصدر العدم إن كان عدم، فالله سبحانه هو الخالق، ثم هو الحافظ لما خلق، فالوجود محتاج إليه سبحانه في وجوده، ثم هو محتاج إليه في استمرار ذلك الوجود، يقول تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

والذات الإلهية أكبر وأجل من أن يحيط بها الخلق، فالإنسان محدود ومتناهٍ، والمحدود لا يشمل اللا محدود، والمتناهي لا يحيط باللا متناهٍ، وقصارى جهدنا في معرفة الله- تعالى- أن نُلِمَّ بصفاتٍ وصف بها ذاته، وحتى هذه الصفات لا يتطابق مدلولها عندنا مع حقيقتها، فحقيقة الصفة الإلهية تنافي الصفات البشرية التي وضعت الألفاظ لتدل عليها.

وإذن فنحن لا نعرف حقيقة الذات الإلهية ولا حقيقة صفاتها، وإنما نحن نستدل على الذات بآثارها.

والإيمان بالله هو رأس العقائد الدينية كلها، وعقيدة الإنسان في إلهه هي المرآة الصادقة التي تعكس صورة الدين كله، فإن أردت أن تعرف صلاحية

الدين عند قومٍ فانظر أولًا في عقيدتهم في الله، فإن صلح اعتقادهم في الله صلح الدين، وإن فسد اعتقادهم في الله فقد فسد دينهم بكل ما حوى.

والعقيدة الإلهية في الإسلام هي الذروة القصوى سموًّا وكمالًا، وعقيدة المسلم في الإله عقيدة صحَّحت انحرافات الرسالات السابقة في عقيدة الإله.

فالإله في الإسلام ليس إله طائفة بعينها يتعصب لجنس دون جنس، ويفضل بعضًا على بعض، وله من كل الشعوب شعب مختار، يفضله على سائرهم وَيُدَلِّلُهم على حسابهم.

والإله في الإسلام ليس ثلاثة في واحد، أو واحد في ثلاثة، الإله في الإسلام لا يحاسب الإنسان بذنب غيره، فواحد يذنب، وثانٍ يتحمل الخطيئة، وثالثٌ يكفر، ليس الإله في الإسلام أسرة مكونة من والد، وولد، وشيء ثالث لا يدرى ما هو على التحقيق!

الإله في الإسلام هو إله العقل والقلب، هو إله الفكر والفطرة، هو الإله الذي ينادي به ضمير الإنسان، ويدعو إلى الإيمان به دون أن يأتيه داعي السماء.

الله في الإسلام هو:

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٢-٤].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ﴾ [الأنعام: ٩٥].

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٣].

﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الحشر: ٢٣].

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [سورة الإخلاص].

والآيات التي تتحدث عن الذات الإلهية في الكتاب العزيز كثيرة لا يحصيها هذا البحث الموجز، وهي كلها تفيد الكمال والشمول والعموم، وكل ما ذكر في الكتاب العزيز من صفاتٍ فإنما هو للتقريب والتمثيل، كما في تشبيهه تعالى نورَه بمشكاة فيها مصباح.

العلاقة بين الله والإنسان:

أولًا: من الله للإنسان:

وعلاقة الله بالإنسان هي علاقة الخلق والإبداع:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ ﴾ [آل عمران: ٦].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٦- ٨].

وهي علاقة الرزق:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا

أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ [الأنعام: ١٤١].

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ [عبس: ٢٤- ٣٢].

وهي علاقة رحمة:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة: ١].

﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة: ٣].

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣].

وهي علاقة ولاية وهداية:

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [المائدة: ٥٥].

وهي علاقة محبة غامرة:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهي علاقة بعث بعد الموت:

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ٥٥].

وهي علاقة حساب وجزاء في الآخرة على ما عمله الإنسان في الدنيا:

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ

﴿ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٩- ٤١].

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

ثانيًا: من الإنسان لربه:

وأما علاقة الإنسان بربه فهي علاقة تعبُّد قبل كل شيء:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وهي علاقة تقوىٰ وإسلام:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

وهي علاقة طاعة مطلقة واستجابة دائمة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وهي علاقة صدق وعدل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ﴾ [النساء: ١٣٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

وهي علاقة دعاء وتوسل وطلب:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وهي علاقة أمل ورجاء لا حدود لهما، فالله مَنَاط كل أمل، ومَقَر كل رجاء:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

والعلاقة بين الله والإنسان من قبل ذلك كله ومن بعده هي علاقة بين إله وعبد، بين خالق ومخلوق، فالله هو الله، والعبد هو العبد، ولا يجوز أن تغرب هذه الحقيقة عن فكر العبد في وقت من الأوقات.

وإنما يكون حب الله العبد، وإكرامه إياه، وقربه منه على قدر معرفة العبد هذه الحقيقة، وبناء سلوكه على أساس منها:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥-١٧].

وليست هناك علاقة بين الله والعبد يتعلق بها مصير العبد في الأولى والآخرة سوى علاقة العبودية والطاعة والإذعان:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وإذا عرفنا هذا أدركنا أن الناس جميعًا، وعلى اختلاف ألوانهم وأشكالهم

عند الله سواسية، لا يتفاضلون إلا بالتقوى والعمل الصالح:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ولقد ضل ناس زعموا أن الله يحبهم لذواتهم، وأنه يقيم علاقته بهم على أساس أنهم جنس بعينه، وفصيلة بخصوصها، واعتقدوا بذلك أن الله يقيم علاقته مع الناس على أساس التعصب لجنس دون جنس، والانتصار لذلك الجنس لعلاقة خاصة بينه وبين الله:

﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة: ١١١].

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: ١٨].

٢ ـ اليوم الآخر

يأتي بعده فناء الدنيا، تبعث فيه الخلائق للحساب، فيقضي الله بينهم، ويجازي كُلًّا بما قدمت يداه.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

وقد أطلق الكتاب العزيز على ذلك اليوم أسماء كثيرة، منها:

اليوم الآخر:

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهو يوم القيامة:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وهو يوم الدين:

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

وهو يوم الفصل:

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٤٠].

وهو الدار الآخرة:

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ﴾ [القصص: ٧٧].

وهو الآخرة:

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

وهو الساعة:

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

وهو الطامة الكبرى:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٤].

وهو الصاخة:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ [عبس: ٣٣].

وهو الغاشية:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١].

ولقد استأثر الله بعلم ذلك اليوم، فلا يعلم متى يقع ذلك اليوم ملكٌ ولا رسولٌ ولا إنسٌ ولا جنٌّ.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [فصلت: ٤٧].

وإلى ذلك اليوم يشتد فضول الإنسان، ويكثر تساؤله:

متى؟ كيف؟ أين؟

ولقد تساءل الناس عن ذلك، وتوجهوا بهذه الأسئلة إلى رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فجاء الرد من عند الله ليريحهم، وإن كان لا يشفى فضولهم، قال تعالى:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٢- ٤٥].

وفي هذه الآيات ردٌّ على المتسائلين، وبيان لموقف رسول الله ﷺ من ذلك اليوم، ففيها رد على المتسائلين بأن علم ذلك اليوم عند الله وحده لا يشرك غيره فيه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

وفيها بيان لموقف رسول الله ﷺ، وأنه ليس إلا منذرًا فقط.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢].

وإخفاء علم ذلك اليوم عن الإنسان جدير بأن ينفي الإنسان من الخطأ، ويصونه من الدنس، وينهاه عن الفحشاء والمنكر، ويخلق فيه وازعًا ذاتيًّا، وضميرًا حيًّا يقف حائلًا بينه وبين المعاصي والآثام.

وليس الأمر مقصورًا على ذلك الجانب السلبي فقط، بل إن خفاء ذلك اليوم ليخلق من الإنسان المؤمن إنسانًا إيجابيًّا، يفعل الخير ويحض عليه، كما يبتعد عن الشر وينهى عنه، ولو أن الله تعالى أبان للناس موعد ذلك اليوم، لتمادوا في غيهم وزادوا من طغيانهم، ولكن الله تعالى أخفاه ليكون الإنسان في انتظاره، وعلى توقُّع من حدوثه في كل لحظة وحين، فلا يكسل طرفة عين عن أوامر الله، ولا ينشط مثلها في نواهي الله، وإنما يظل على توقع منه مراعيًا أوامر الله ونواهيه، وبذلك يكون خفاء ذلك اليوم قد خلق في الإنسان الشعور الذاتي

بالمسئولية، والوازع النفسي والشخصي على القيام بها وتحملها بما يرضي الله ورسوله وصالحي المؤمنين وينجيه من عذاب ذلك اليوم المرتقب.

ومع أن الله تعالى قد استأثر بعلم ذلك اليوم، فإنه تعالى قد أفاض علينا من ذلك العلم بعضًا من علامات ذلك اليوم وأشراطه، هذه العلامات التي أبان الله عنها في كتابه وأبان الرسول ﷺ عنها في سُنَّته نوعان:

النوع الأول: نوع يؤذن بقرب حلول ذلك اليوم.

النوع الثاني: والنوع الثاني يؤذن بحلوله بالفعل.

فمن تلك العلامات التي تؤذن بقرب حلوله؛ أن يزداد علمُ الإنسان بأسرار الكون، وأن يطغى الإنسان بسبب ذلك العلم، وأن يثبت في روعه أنه أضحى مالكًا زمام الكون، يتصرف فيه كيف يشاء، وهنا يأتي أمر الله بقيام الساعة، يقول تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

ومن علامات قرب ذلك اليوم، أن ينسى الناس خالقهم وينصرفوا عنه، وأن تقسوَ قلوبهم، وأن يفتح الله عليهم مغاليق الحياة المادية فيقوى اعتزازهم بها، ويشتد ركونهم إليها، ويعمق ارتكاسهم فيها.

وهنا يأتيهم ذلك اليوم بغتة.

يقول- تعالى-:

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

وأما النوع الثاني: وهو العلامات التي تؤذن بحلوله بالفعل فمنه نفخة الصور.

والنفخ في الصور ثلاث نفخات[١].

أولها: نفخة الفزع.

وثانيتها: نفخة الصعق.

وثالثتها: نفخة القيام للحساب.

أما نفخة الفزع فيقول الله تعالى ذاكرًا إياها:

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾ [النمل: ٨٧].

وأما نفختا الصعق والقيام فقد ذكرهما الله تعالى في قوله:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وقيل: إن النفخ نفختان فقط، وهما الأخيرتان فقط من الثلاثة التي ذكرناها آنفًا، وهما نفختا الصعق والقيام، وإن نفخة القيام هي نفسها نفخة الفزع، وإن الفزع إنما يكون عند القيام للحساب[٢].

ومن علامات حلول ذلك اليوم أن يتبدل كل شيء في الوجود، سواء في ذلك السموات والأرض، يقول سبحانه:

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

وهذا التبدل الذي ذكره الله تعالى هنا مطويًّا، قد ذكر الله بعضَه في آيات أخريات، يقول ﷻ:

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٧٧-٣٧٨).

(٢) تفسير أبي السعود (٤/ ١٤٣-١٤٤).

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ١ - ٦].

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣ - ١٧].

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١-١٤].

هذه بعض علامات اليوم الآخر في كتاب الله تعالى.

وفي السنة النبوية، سأل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ رسول الله ﷺ عن أشراطها، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«أن تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وأن ترىٰ الحفاةَ العراةَ رعاءَ الشَّاءِ يتطاولون في البُنْيَانِ»[1].

وهذه الأشراط أو العلامات لا تنافي حكمة الله تعالى من إخفاء ذلك اليوم؛ لأنها علامات مبهمة، وليست محددة تحديدًا دقيقًا يجعلها نصًّا على زمان بعينه، أو وقت بخصوصه، فقصاراها أنها تشير إلى قرب وقوعه، بل إن ذكر هذه الأشراط التي تنبئ الناس بقيام الساعة عند شيوع الفساد، لجديرة بأن تأخذ بحجز الناس عن مهاوي الفساد ويردهم إلى طريق الرشاد؛ إذ كلما فسد الزمان،

---

(١) أخرجه مسلم (٨).

شعر الناس بقرب قيام الساعة، بناء على هذه العلامات، فنزعوا عن الفساد إلى الصلاح، ومن الضلال إلى الهدى، فَذِكْرُ هذه العلامات من شأنه أن يخفف من الفساد كلما ظهر الفساد في البر أو البحر.

ومن الأمور التي تعهد الله تعالى بها الناس حتى يربي فيهم وازع الخوف من ذلك اليوم والخشية، والحذر منه والرهبة، حتى تظل قلوبهم عامرة بالخوف من ذلك اليوم فلا ينساقوا وراء كاذب الآمال كلما طالت بهم الأعمار، وامتدت بهم الآجال أن الله- تبارك وتعالى- أخبر بقرب وقوع ذلك اليوم، وأنه أقرب إلى الناس مما يظنون، يقول سبحانه:

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧].

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦-٧].

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦].

ويقول الرسول الكريم ﷺ: «بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين» وضم السبابة والوسطى[(١)].

واليوم الآخر مليء بكثير من الأمور الغيبية التي تختص بالحساب والثواب والعقاب، وما يطيف بكل ذلك من بعث وحشر وسؤال وشفاعة وميزان وصراط وجنة ونار، وأمور كثيرة ثبتت بالكتاب والسنة الصحيحة وإجماع المسلمين.

ولقد ذهب بعض الفلاسفة إلى أن اليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٤) ومسلم (٢٩٥١).

وجنة ونار، إنما كل هذه أمور روحانية، وليست مادية، وقالوا: إن ما في القرآن والسنة من التجسيد المادي لهذه الأمور إنما هو للتقريب والترغيب والترهيب.

والحقيقة التي لا يُخْتَلَف عليها، أن كلام الله صدق لا ريب فيه، وأن أخباره واقعة لا مبالغة فيها، وأن رسوله ﷺ إنما يبلغ عنه تعالى فلا ينطق عن الهوى، فكلامه عَلَيْهِ السَّلَامُ وأخباره هي بهذه المنزلة أيضًا، فإذا ذكر الله بعثًا جسديًّا وحسابًا وجزاءً ماديًّا فهو ذلك، ولا يختلف على ذلك إلا شقي.

ولقد ورد في كتاب الله أدلة مفحمة لهؤلاء الذين شغبوا على البعث الجسماني، يقول تعالى:

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨-٧٩].

وكذلك إذا أخبر الله تعالى أن ثمة جنة ونارًا حقيقيتين، وأن بهما من أوصاف النعيم المادي والعذاب المادي ما هيئته كذا وكذا، فالنعيم المادي والعذاب المادي حقيقة لا يختلف عليها إلا شقي.

ولقد حاول كثير من المفكرين والمتفلسفين أن يجدوا مخرجًا من مادية البعث في الآخرة وما يتلوه من شئون ذلك اليوم كلها، والاتجاه بينهم- كما ذكرنا- أن هذه الأمور كلها روحانية وليست مادية، وأن التمثيل لها بالماديات إنما هو للتقريب والتوضيح والترغيب والترهيب ليس أكثر.

وقد عبر عباس العقاد عن عقيدة هؤلاء، فقال: «فالحقيقة الإيمانية لا بد أن تمتزج بتصور المؤمنين بها؛ لأن الخطاب فيها موجه إلى ملايين البشر، منهم العارف والجاهل، ومنهم الذكي والغبي، ومنهم كبير النفس وصغيرها، ورفيع الحس

ووضيعه، ومنهم من يطلب الكمال، ومن لا يعرف كمالًا يطمح إليه، فلا بد من توضيح الحقيقة الاعتقادية بالمحسوسات في كثير من الأحوال، وعلى هذا ينبغي أن يروض فكره كل من ينظر إلى عقيدة الحياة الأخرى في القرآن الكريم»[١].

ولعل الدافع الأول عند هؤلاء جميعًا إلى هذه النزعة هو قصور عقولهم عن أن تهضم فكرة البعث الجسماني وما يتبعه من أحوال كلها مادية وجسمانية- على ما أخبر الحق - تبارك وتعالى.

والقضية في الحقيقة ليست قضية عقولهم بقدر ما هي قضية قلوبهم، وليست قضية فكرة بقدر ما هي قضية عقيدة، فهي ترتبط من مبتداها إلى منتهاها بقدرة الله تعالى، ومدى الثقة في هذه القدرة، والاقتناع بها والاطمئنان إليها، وعندما نصل إلى هذه النقطة نرى أن القضية ليست قضية اليوم الآخر فقط، وإنما هي قضية الدين كله من بدايته إلى نهايته، فالدين يقوم على إيمان عميق بقدرة الله تعالى، الذي خلق الوجود كله، والذي يعتمد عليه الوجود في خلقه وفي استمراره.

والله الذي خلق هذا الوجود وحفظه كيف يعجز عن خلق مثيل له؟

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨١- ٨٢].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ [الروم: ٢٧].

وما أضل وأشقى ذلك الذي يستبعد على قدرة الله ذلك البعث المادي وما يتبعه.

وإنما يأتي الضلال والزيغ حينما يدس العقلُ أنفَه وهو قاصر عن إدراك هذه

---

(١) الفلسفة القرآنية، لعباس محمود العقاد (ص١٧٣).

الأمور، فيزنها بميزانه، وميزانه قاصر، وإدراكه عاجز، وليس هذا مجاله، وإنما أمرنا بأن نؤمن بها كما وردت؛ ولذلك سُميت سمعيات وغيبيات، فواجب أن نؤمن بأن في الآخرة بعثًا وحسابًا وجزاءً وصراطًا وجنةً ونارًا، ونعيمًا مقيمًا وعذابًا أليمًا، وأن هذه كلها أمورٌ مادية جسمانية على ما أخبر الله- تعالى- ورسوله ﷺ.

ونحن نؤمن كذلك بأن نعيم الآخرة وعذابها ليس لهما من نعيم الدنيا وعذابها إلا الاسم فقط، فهذه الموصوفات من الجنة وما فيها، والنار وما فيها، غير ما نَعْهد في مثيلاتها في الدنيا، يقول تعالى:

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

ويقول الرسول ﷺ في وصف الجنة: «**فيهَا مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَر**»(١).

ولكن مع الإيمان بأنها أمور مادِّية على ما ذكر كتاب الله وأخبر رسول الله ﷺ.

وهذه النزعة التي تنكر المادية وتدعو إلى الروحانية في اليوم الآخر وما يعلق به، إنما تشيع عند بعض الفلاسفة وبعض المتصوفة، على ما بين الفريقين من تنافر، ومع اختلاف كل من الفريقين في الدافع إلى ذلك والوازع إليه.

فالفلاسفة أنكروا المادية والجسمانية في الآخرة؛ لأن عقولهم ضاقت عن فهم ذلك، وكبر عليها أن تسلِّم لله تعالى بالقدرة على تحقيق هذه الأمور على الصورة الحسية أو المادية، ولأن قلوبهم لم تشرب من الإيمان بعظمة الله وقدرته القدرَ الذي

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٤) ومسلم (٢٨٢٤).

يجعلهم يسلِّمون لله سبحانه بالقدرة على ذلك وما هو أكثر منه.

ومن الأمثلة على موقف الفلاسفة موقف الفيلسوف ابن رشد، الذي يصور موقفه الأستاذ الدكتور غلاب فيقول: «أما خلود النفس بالمعنى الذي تفهمه الجماهير، من أنها ستبقى بقاءً شخصيًّا، وستلاقي جزاءها بعيدًا عن الجسم كما قررت بعض الأديان القديمة، أو أنها ستلقى جزاءها في الأجسام كما قرر الإسلام في ظاهره؛ فكل ذلك تمثيل أتت به الأديان لترهب به العامة من العقاب وتغريهم بالثواب، فيسلكوا سبيل الفضائل ويجتنبوا الرذائل؛ وذلك لأن كل نبي حكيم يهمه صلاح الأمة التي هو فيها، وهو يرى أن التمثيل بالحشر الجسماني أبلغ في تحقيق هذا الغرض من التمثيل بالحشر الروحاني»[١].

وللفيلسوف «ابن سينا» رسالة في المعاد يقرر فيها:

١- أن البعث روحاني، وأن النعيم والعذاب أمور روحانية معنوية.

٢- أن البعث هو موت الجسد وانفصال النفس عنه.

٣- أن هذا يعني أن يوم القيامة ليس بعد فناء الدنيا، ولكنه عقب وفاة الإنسان.

٤- ويعني هذا أيضًا أن لكل شخص قيامته الخاصة به، وأن الدنيا باقية أبدًا، والقيامة قائمة أبدًا، كلما مات إنسان قامت قيامته.

أما المتصوفة فقد شاع بين كثير من فرقهم الإيمان بمعاد روحاني ونعيم روحاني؛ نتيجة زهدهم في المتاع المادي واحتقارهم إياه- كما يزعمون- وعدم اعتبارهم به في مقابل النعيم الروحاني الذي هو أسمى وأجل وأعظم من النعيم

---

(١) المعرفة عند مفكري المسلمين، د. محمد غلاب (ص٣٠٨).

المادي المسف، فنعيم الحياة الباقية عندهم لا يتعدى القرب من الله، والفناء فيه، وهم لا يتطلعون إلى جزاء غير هذا الجزاء في الدار الآخرة، ومن الأمثلة على ذلك ما يحكي من أن:

رابعة العدوية سمعت قارئًا يقرأ قوله تعالى:

﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢١].

فقالت: «نحن إذن صغار حتى نفرح بالفاكهة والطير!»[1].

وسمع الشبلي قوله تعالى:

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فصاح صيحة عظيمة، ثم قال: «فأين الذين يريدون الله تعالى؟»[2].

وكان الشبلي يقول في قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ [البقرة: ٦٠]: «إن كان في ظَاهِرُهُ إنعامًا، فباطنه ابتلاء وانتقام واختبار، لينظر تعالى مَن هو معه ومَن هو مِن حظِّ نفسه»[3].

---

(١) الطبقات الكبرى للشعراني (٢/ ٧١).

(٢) طبقات الشعراني (٢/ ٧٢).

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٦٦/ ٧٧).

٣ ـ الملائكة

خلق من خلق الله، وعباد من عباده، لا تدركهم الحواس، ولا يراهم من البشر إلا من شاء الله من نبي أو ولي.

والمؤمن يقر بوجودهم، ويثق بحقيقتهم؛ تصديقًا لخبر الله تعالى ورسله- صلوات الله وسلامه عليهم- ولما يرى من آثار وجودهم.

والملائكة أصناف كثيرة، ولهم وظائف عديدة.

فمنهم حملة العرش.

يقول تعالى:

﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

ومنهم رسل الله إلى البشر.

يقول سبحانه:

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: ٣٩].

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢].

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥].

﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢].

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: ١].

ومنهم خزنة الجنة:

يقول ﷻ:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

ومنهم خزنة النار:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الزمر: ٧١].

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المدثر: ٣١].

ومنهم كتبة الأعمال:

يقول سبحانه:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠- ١٢].

ومنهم الموكلون بتوفي الأنفس:

يقول سبحانه:

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ [النحل: ٣٢].

ومنهم جند الله يمد بهم أولياءه في معاركهم ضد أعدائه.

يقول ﷻ:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ

مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال: ٩].

والملائكة مخلوقات نورانية، منزهة عن الشهوات والمفاسد التي طُبع عليها الإنسان، طبعها الله على الخير فلا تعرف غيره، وجَبلها على حبه فلا تبغى سواه، تَعبُدُ الله بالليل والنهار، وهذه رسالة الملائكة الأولى.

يقول- سبحانه-:

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩- ٢٠].

وهم مطيعون لله، قائمون على تلبية أوامره دون تساؤل أو تردد.

يقول تعالى في وصفهم:

﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

والملائكة عباد الله يرهبونه ويخافونه:

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾ [الرعد: ١٣].

ومع أن الملائكة عباد الله إلا أن بعض الناس قد عَمُوا فعبدوهم وألَّهوهم.

يقول سبحانه:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠].

والملائكة لا توصف بذكورة ولا بأنوثة، ولكنَّ قومًا ضلوا فوصفوهم بالأنوثة:

يقول تعالى:

﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾ [الزخرف: ١٩].

وجعلوا هؤلاء الملائكة الذين وصفوهم بالأنوثة بنات الرحمن:

يقول تعالى:

﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا

يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِالْبَنِينَ ﴾ [الزخرف: ١٥- ١٦].

﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ [النجم: ٢١- ٢٢].

ويبلغ بهم الجهل مداه حين يعبدون الملائكة، ثم يُرجعون تلك العبادة إلى مشيئة الله.

﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٠].

هذا ما يفعله الإنسان مع أن الملائكة عباد الله.

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٠].

والملائكة الذين عبدهم الإنسان أربابًا وآلهة لا يملكون لأنفهسم ضرًّا ولا نفعًا.

﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ [النجم: ٢٦].

ولو أن ملكًا سَوَّلت له نفسه أن يعصي الله لعاقَبه أشدَّ العقاب، وذلك ما حدث لواحد منهم.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا ﴾ [الأعراف: ١١- ١٣].

ومن الملائكة صنفٌ خلقه اللهُ رحمةً للمؤمنين، فهم يحفظون الإنسان من بعض ما يضره:

يقول تعالى:

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١].

وهم يستغفرون الله للمؤمنين.

يقول ﷻ:

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى: ٥].

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٧].

٤ ـ الكتب

هي دين الله مسطورًا، جاءت لتعرِّف العبد بربه، وتنقل تعاليم الرب إلى عباده، أُنزلت على رسل الله من البشر، ليبلِّغوها إلى جميع مَن بُعثوا إليهم.

والكتب كثيرة، وكل كتاب كان ينزل بشريعة محدودة لأقوام محدودين، حتى جاء كتاب الله الفرقان، فهيمن على الكتب السابقة كلها، واختص بالهداية من دونها، وأصبح هو كتاب الله الكامل الشامل إلى العالمين جميعًا لهدايتهم إلى جنة ربهم وإنذارهم عذابه.

يقول سبحانه:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

ورسالة الكتب هي هداية الناس إلى طريق الله، والأخذ بأيديهم بعيدًا عن الاختلاف والتنابذ.

يقول تعالى:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

ولقد جاءت الكتب متدرجة بالرسالات في طريق الكمال، فكان كل كتاب يحمل نفس العقيدة الواحدة، ثم يحمل من الشرائع ما يتفق وظروف القوم المنزَّل عليهم، ودرجتهم من الكمال العقلي والنضج الفكري، وكلما تقدم

البشر خطوة في سبيل الرقى والكمال، نزل عليهم كتاب جديد يغير قليلًا من أحكام الكتاب السابق، بما يتناسب والمرحلة الجديدة التي وصلوا إليها، وليرتفع بهم درجة في سلم الرقي والكمال، حتى إذا بلغت الإنسانية أوج كمالها، ووصلت إلى الدرجة التي تؤهلها لتلَقِّي الدين كاملًا، وحمل الأمانة مستوفاة، أنزل الله كتابه الأخير الخاتم، الذي ورث الكتب السابقة كلها، وهيمن عليها جميعها، فكان الكتابَ الكامل للدين الكامل.

وقد ذكر الله تعالى كثيرًا من هذه الكتب التي أنزلت على رسله في الكتاب العزيز، منها صحف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨-١٩].

والتوراة كتاب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣].

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: ٤٤].

والإنجيل كتاب عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦].

ثم جاء الكتاب:

﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وهذا العَلَم بين الكتب هو خاتمها وهو المهيمن عليها، فلا كتاب إلا هو:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

وإيمان المؤمن بالكتب يجب أن يكون شاملًا لكل ما جاءت به، أما الإيمان ببعضها دون بعضها، فذلك والكفر بجميعها سواء.

يقول تعالى مخاطبًا اليهود:

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ ﴾ [البقرة: ٨٥].

وإيمان المؤمن بالكتب يجب أن يكون نابعًا من إيمانه بمن أنزل الكتب، وليس لغرض شخصي أو منفعة يجنيها من وراء ذلك الإيمان الزائف.

يقول سبحانه عن بعض علماء اليهود:

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ ﴾ [البقرة: ٧٨-٧٩].

وإيمان المؤمن بالكتب يجب أن يكون دائمًا في جميع الأوقات والظروف.

وإلا كان منافقًا، مثل هؤلاء الذين ذكرهم الله في كتابه، فقال عنهم:

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٢].

القرآن الكريم:

كتاب الله الذي أنزل على محمد، والذي هيمن على الكتب، فيه الشريعة التي ختمت الشرائع.

وهو الكتاب الكامل:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وفيه الشريعة الكاملة:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ولأنه الكتاب الكامل، وبه الشريعة الكاملة، كان كتابَ العالمين جميعًا:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

والقرآن هو كتاب الله الذي سَلِم من التحريف والتبديل، وكل الكتب السابقة عليه ما بين محرَّف ومرفوع، فليس بين يدي البشرية كتاب إلهي صحيح سوى كتاب الله الفرقان.

فاليهود حرفوا كتاب الله التوراة:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣].

والنصارى أضاعوا الإنجيل ونسوه:

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٤].

واليهود والنصارى جميعًا أخفوا كتب الله وحرفوها:

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ ﴾ [المائدة: ١٥].

أما الكتاب العزيز فقد حفظه الله من التغيير والتحريف:

﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

ولكن إذا كان القرآن كتاب الله وكذلك التوراة والإنجيل، فلماذا ترك الله يد الإنسان تطيش بالتحريف والتبديل في الكتب السابقة، وحفظ القرآن وحده؟ لماذا تكفل الله بحفظ ذلك الكتاب وحده، ولم يحفظ ما سواه؟

إن الكتب السابقة على القرآن لم تكن إلا تمهيدًا للقرآن، ولم تنزل إلا لتُعِدَّ الناس، وترفع البشرية، وتنبه العقول والضمائر إلى الشريعة الكاملة المنتظرة، فالكتب التي سبقت القرآن كانت ذات رسالة محدودة، ومهمة وقتيَّة.

لم تكن شريعةَ الإنسان، وإنما كانت تمهيدًا لشريعة الإنسان.

فكانت مهمتها إيقاظ البشرية من سُباتها، والارتفاع بها؛ حتى تصير جديرة بتلقي الشريعة الكاملة، والنعمة التامة، ثم جاء الكتاب الكامل فورثها وهيمن عليها.

ولقد تولى الله تعالى حفظ القرآن من دون الكتب كلها؛ لأنه شريعة الإنسانية، ولأنه الدين الكامل الذي أراده للبشرية منذ الأزل، ولكنه احتفظ به حتى استوفت الإنسانية كمالها وبلغت رشدها، وحينئذ أكمل الله لها الدين، وأتم عليها النعمة.

ولأن الكتب السابقة موقوته ومحدودة، لم تكن ثمة حاجة لحفظها، بل لعل لتحريفها حكمة، ولعل من حكمة تحريفها التعجيل بإنزال كتاب الله القرآن، وإظهار الفارق بينه وبينها، فليس المراد من تحريفها انتقاصها، ولكن إظهار

كمال خاتمها:

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

فالقرآن إذن كتاب الله منذ الأزل، وشريعته شريعة الله منذ الأزل، ولكنه أُخِّر في النزول حتى تستوفي الإنسانيةُ المَنْزِلَةَ التي تؤهلها لتلقيه، وما كانت الكتب قبله إلا مراحل تمهيدية بين يدي هذا الكتاب الخاتم الذي هو مقصود الله الحق، ومراده الصدق، من كل الكتب والشرائع التي أنزلها على الإنسانَية منذ بدايتها.

حديث القرآن عن القرآن:

أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ القرآن هدًى ونورًا، وأنزله ذكرًا وذكرى وتذكرة، وأنزله شفاء لما في الصدور، وأنزله شفاء ورحمة للمؤمنين، وأنزله شريعة يحكم الناس بها ويحتكمون إليها.

ولقد تحدث القرآن عن القرآن حديثًا ضافيًا نقتبس بعضًا منه في السطور التالية:

القرآن هو الكتاب الحق الذي لا يلحقه ريب ولا شك:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢].

وهو نور الله يهدي الناس إلى الطريق المستقيم:

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦].

وهو ذكرى، وذكر، وتذكرة:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨].

ولأنه كتاب ذكر وعبرة، فقد أكثر الله فيه من تصريف الآيات، والأمثال ليذكر الناس:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الإسراء: ٤١].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الكهف: ٥٤].

والقرآن جمع فأوعى:

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

وهو كتاب الله الحق:

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

وقد نزَّل الله- سبحانه- القرآن على رسوله ﷺ مفرَّقًا ليقرأه على مكث وتمهُّل، وليثبِّت به فؤاد رسول الله ﷺ:

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

وهو شفاء ورحمة للمؤمنين، وعذاب وخسار على الكافرين:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

حديث الرسول ﷺ عن القرآن:

ولقد أفاضت السنة الشريفة في الكلام عن القرآن، ومن ذلك قوله ﷺ: «**كتاب اللهِ، فيه نَبأ مَا قَبْلَكُمْ، وَخَبرُ ما بَعْدَكُمْ، وحُكْمُ ما بَيْنَكُم، وهو الفَصْلُ لَيْسَ بِالهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِن جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، ومَنِ ابْتَغَىٰ الهُدَىٰ في غيرِه أَضَلَّهُ اللهُ، وهُوَ حَبْلُ اللهِ المتينُ، وهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، ولَا يَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ، ولَا يَخْلَقُ عَلَىٰ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ خَاصَمَ بِهِ أَفْلَحَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»[(١)].

الانحراف بكتاب الله عن هدفه:

القرآن كتاب هداية ونور، وهو كتاب حوى شريعة الله الكاملة إلى الناس أجمعين، فيه الخير كله لمن تَبِعَهُ، وفي حديث الرسول الكريم ﷺ الذي تقدم ذكره إشارات إلى هذا الخير وذكر لبعض صوره.

فرسالة القرآن التي جاء من أجلها، وهدفه الذي أنزله الله تعالى لتحقيقه واضح لا يختلف عليه مَن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ولقد حقق الرسول ﷺ رسالة القرآن هذه، ووصل به إلى غايته في مجتمعه.

وكذلك سار الصحابة والتابعون.

ثم خَلَف من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا كتاب الله، فلم يسيروا على هديه، وليتهم إذ لم يسيروا على هديه أخرجوه من حياتهم جملة، ثم تركوه وشأنه.

---

(١) أخرجه أحمد (٧٠٤) والترمذي (٢٩٠٦) وقال: حديث غريب.

ولكنهم انتهكوا حرمته، واعتدوا على جلاله وقدسيته.

فهم أضاعوا كتاب الله بإهمال رسالته، وإهمالُ رسالته إساءة إليه أيما إساءة، ثم أضاعوا حرمته حيث ابتذلوه في مجالات بعيدة كل البعد عما أُنزل الكتاب من أجله، فلقد بذلوه وسيلةَ تكسب في الأفراح والمآتم، وعلى رؤوس الأموات، بذلوه وسيلةَ تسوُّل في البيوت وفي عرض الشوارع والطرقات، بذلوه رقًى وأحجبة تقي من الحسد والجن والشياطين، بذلوه تمائم تباع وتشترى بثمن بخس دراهم معدودة، وانتهى الأمر بكتاب الله أن تحوَّل إلى سلعة كاسدة، في سوق فاجرة، يديرها خبيثو النفوس وساقطو الكرامة وجند الشيطان، أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانو مهتدين، يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون.

ومن صور الانحراف بكتاب الله عن مقصده، تأويل بعض آياته بما لا يقبله عقل أو منطق؛ لِعِلَّةٍ في الفهم، أو هوًى في النفس، ومن الأمثلة على ذلك ما يقال في تفسير هذه الآية الكريمة من سورة الإسراء:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

فيذهب بعض الباحثين إلى أن المراد هنا هو الشفاء الجسدي، وأن بعض آيات القرآن الكريم- لا كله- هي بمثابة مبضع الجراح، أو جرعة الدواء التي يأخذها العليل شربًا أو حقنًا، ثم يتأولون بعض الأحاديث ليصححوا بها وجهتهم تلك.

ومن هذه الثغرة خرجت الأحجبة والتمائم، ومزِّق كتاب الله إلى أشلاء:

بعضها يشفي من داء الحمى، وبعضها من داء الصفراء، وبضعها مما لست

أدرى من أدواء، وكأن الله سبحانه بعث محمدًا ﷺ طبيبًا في صيدلية بعالج مرضى الجسد، ووزع القرآن على أرفف وفي قوارير، هذا لعلاج كذا، وهذا لعلاج كذا، وما علمت محمدًا ﷺ- في أصل رسالته- طبيبَ جسدٍ، وإنما طبيب قلوب، وما علمت محمدًا إلا يمرض فيبعث في طلب الأطباء ليطبُّوه.

والواضح أن المراد من الشفاء في الآية هو الشفاء من الضلال الديني، والانحراف العقدي- كما ذهب إليه جمهور المفسرين- وهذا الذي يتمشى مع اقتران الشفاء بالرحمة، فإن رحمة الله تعالى قريب من الأصحاء عقيدةً وليس من الأصحاء جسدًا، وإذا كان في الشفاء الجسدي ما هو رحمة، فإن الأفضل والأعظم والأليق بكتاب الله أن تكون الرحمة فيه للشفاء الروحي من الضلال والزيغ، وهذا هو الذي يتساوق مع الاختصاص بالمؤمنين؛ فإن الأمور العضوية لا تتوقف في نتائجها على المؤمن أو الكافر، وإنما هي تسير في كليهما على سواء، فالمخالفة في الآية بين المؤمن وغير المؤمن دليل على أن الأمر أمر هداية دينية وشفاء عقدي.

والقرآن الكريم بهذا المعنى كله شفاء ورحمة، وليس بعضه فقط كما ذهب إليه بعض الباحثين [١]، محتجًّا بأن «مِن» في الآية للتبعيض، وعلى هذا فبعض القرآن- لا كله- شفاء ورحمة.

وذلك خطأ نستغفر الله تعالى منه؛ فلقد جاءت «مِن» في الآية- والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلم- للبيان وليست للتبعيض، فالقرآن الكريم كله شفاء ورحمة،

---

(١) الدكتور محمود محمد الشريف، في رسالته التي قدمها لنيل درجة الدكتوراه، وموضوعها: الأديان في القرآن الكريم.

وليس بعضه فقط- كما زعم الباحث- وفي ذلك يقول- تبارك وتعالى:

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

ثم إذا كان بعض القرآن شفاء ورحمة- كما يذهب إليه الباحث- فماذا يكون البعض الآخر؟

القرآن الكريم والسنة الشريفة

القرآن الكريم يمثل المصدر الأول للإسلام:

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [المائدة: ٤٨-٤٩].

ولكن القرآن ليس هو المصدر الوحيد للإسلام، وإنما أوحى الله تعالى بمثله معه، وذلكم المثل هو:

السنة الشريفة:

وسنة رسول الله ﷺ ليست غريبة عن القرآن، وليس هو غريبًا عنها، فهما ينبعان من منبع واحد، ويغترفان من معينٍ مشترك، هو المعين الإلهي.

فالقرآن وحي الله، والسنة كذلك وحي الله، ومحمد ﷺ كان ينقل إلينا شرع الله ومراده، فبعض ذلك كان ينقله عن الله لفظًا ومعنًى، وذلك هو الكتاب الكريم، وبعضه كان ينقله عن الله في ثوب من ألفاظه أو أعماله.

وتلك هي السنة الشريفة.

فالرسول ﷺ كان في كلا الحالين ناقلًا عن ربه ﷻ، لا يكذب ولا يفترى:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣-٤].

ولأن الرسول ﷺ لا ينطق إلا بوحي يوحى إليه من ربه، كانت طاعته من طاعة الله:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وكان واجبًا علينا أن نستجيب له أمرًا ونهيًا:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وكان اتِّباع رسول الله هو الطريق إلى محبة الله تعالى، وهو دليل صدقها وثبوتها:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١].

وهذا الاتباع الذي أمرنا به ليس مقصورًا على حالة دون حالة من أحواله ﷺ، بل يشتمل جميع أحواله من قول وفعل وتقرير، في أحواله الخاصة والعامة، في حركاته وفي سكناته، في رضاه وفي غضبه، في سِلمه وفي حربه، في بيته وخارج بيته، كل هذه أحوال نحن مأمورون باتباع الرسول ﷺ فيها، يقول تعالى:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ثبوت هذين المصدرين

لعله من الواجب أن نتكلم هنا عن المصدرين الأساسيين للإسلام، وبخاصة وأن كثيرين من الباحثين الذين يدينون باليهودية والنصرانية يجدون الجرأة على المقارنة بين المصادر اليهودية أو النصرانية ومصادر الإسلام.

والأمر الذي له القيمة الجلية بالنسبة للمصادر الدينية هو صدق نسبتها إلى مَن نُسبت إليه، وثبوت هذه النسبة دونما ريب أو شك.

وهذا هو الأمر الذي يقع في المقدمة من الكلام على أيٍّ من المصادر الدينية في أي دين.

ولقد ثبت الكتاب والسنة بأقوى طرق الثبوت التي لا تدع مجالًا لأدنى شك أو ريب يلحق بهما.

أما الكتاب العزيز فقد ثبت بطريق التواتر اللساني والكتابي.

وهذان هما طريقا الثبوت اللذان لا طريق سواهما.

وبذلك ثبت ثبوتًا يوجب اليقين بما حواه، يقينًا جازمًا لا يداخله الشك ولا يخالجه الريب، فلقد جُمع على عهد رسول الله ﷺ، وقرأه الرسول ﷺ على جبريل أكثر من مرة، وهذا ما يسمى بالعرض أو العرضة، وقد ختمه كثير من الصحابة على عهده عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم قرأوه عليه أكثر من مرة وأجازهم فيه.

والقرآن كان على عهد رسول الله ﷺ مجموعًا مؤلَّفًا على ما هو عليه الآن.

وأنه كان يُعرض على النبي ﷺ ويُتلى عليه، وإن جماعة من الصحابة كعبد الله ابن مسعود وأبي بن كعب وغيرهما ختموا القرآن على النبي ﷺ عدة ختمات.

وكل ذلك- بأدنى تأمُّل- يدل على أنه كان مجموعًا مرتبًا غير مضيع ولا مهمل.

إن القرآن معجزة النبوة، ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه والعناية به الغاية، حتى عرفوا كل شيء فيه عن إعرابه، وقراءاته وحروفه، وآياته.

والسنة ثبتت كذلك بالتواتر، وثبتت بطرق لا تدع مجالًا للشك أو الريب، ولم يذكر التاريخ طرقًا للتثبت والتأكد من الأخبار، والبحث عنها، وتتبعها، وامتحانها وفحصها، كما ذَكر عن الطرق التي اتُّبعت مع سنة رسول الله ﷺ، ولقد كانت فذَّة في التاريخ تلك الطرق التي اتُّبعت في جمع السنة، لم تحدث من قبل، ولن تحدث من بعد.

وعلى مدى التاريخ كله كان هناك أديان، ورسل وكتب، وكان للرسل أفعال وسِير، ولم يحدث قط- إطلاقًا- أن اتُّبع في جمع سنة رسول من قريب أو بعيد ما اتُّبع في جمع سنة المصطفى ﷺ.

ولقد كان فذًّا في تاريخ البحث والتقصِّي ذلك الأسلوب الذي اتُّبع في جمع سنة رسول الله ﷺ، فلقد وصل الأمر بهذا الأسلوب أن أقام وحده صرحًا شامخًا من العلوم والمعرفة الخاصة به، والتي تدور حوله، وتقوم عليه، حتى إن هذا الأسلوب ليعتبر وحده ركنًا هائلًا من أركان الثقافة الإسلامية والعالمية.

فلقد نشأت بسببه عشرات العلوم، وأُلِّفَت فيه مئات الألوف من الكتب والأسفار، ونُشر مئات الألوف من البحوث، وانتُدب للبحث في هذا الفرع من

العلوم مئات الألوف من العلماء والفقهاء والباحثين على مدى تاريخه الطويل، وخُصِّصت من أجله جامعاتٌ وكليات وأقسام تقوم كلها بأساتذتها وطلابها على دراسة هذا الفن والتخصص فيه، ونشأ عن ذلك صرحٌ هائل من العلوم الثقافية والفنية تقوم كلها على أساس من جمع سنة رسول الله ﷺ، سواء في طرق ترتيبها وتبويبها، أو بيان صحيحها من معتلِّها، وصادقها من مدسوسها، أو البحث في أحوال سندها من الرجال الحاملين لها، إلى غير ذلك كله من علوم ومعارف تعد بحق ركنًا عظيمًا من أركان الثقافة الإسلامية والعالمية، ولو حاولنا تعديد المآثر الحميدة لسنة رسول الله ﷺ على المعارف والثقافات لضاق عنها هذا البحث المتواضع.

٥ ـ الرسل

رسل الله أفراد يصطفيهم الله - تبارك وتعالى - من الناس؛ ليتلقوا رسالاتهم عنه، ثم ليبلغوها إلى من أُرسلوا إليهم.

ورسل الله أفراد كسائر البشر، إلا أن لهم خصائص تجعلهم شُذَّاذًا من البشر، هم كسائر البشر في أحوالهم الغالبة، يأكلون ويشربون، وينامون ويستيقظون، ويحزنون ويُسَرُّون، يغضبون ويرضون، ولهم ميولهم وأهواؤهم، ولهم شيء من ضعف الإنسان وهواجسه.

لكنهم مع ذلك كله يمتازون عن سائر البشر بقدرات نفسية، لا تتوفر إلا لهم، فهي استعداداتٌ خاصة بهم، وضرورية لهم، وهي من أهم مؤهلات النبوة الموكَّلين بها، والقائمين عليها، والتي تمثل الجانب الثاني الذي يعتبر خصيصة لهم من دون البشر جميعًا، نعني بذلك اصطفاء الله تعالى إياهم للرسالة والنبوة.

هناك إذن بالنظر إلى أنبياء الله حالتان:

الأولىٰ: عامة، وهي بشريتهم.

والثانية: خاصة، وهي امتيازهم بقدرات نفسية خاصة بهم، ومزايا عقلية موقوفة عليهم، أهليتهم لاصطفاء الله سبحانه إياهم أنبياء ورسلًا، هذا الاصطفاء الذي يقوم على اختصاصهم بالوحي.

والنظرة الصائبة إلى رسل الله لا بد أن تأخذ في اعتبارها هذين الجانبين، ولا

يستقيم فهمنا رسل الله وإيماننا بهم إذا نظرنا إلى جانب من هذين الجانبين وأهملنا الآخر، فالنظرة إلى جانب واحد فيها إفراط أو تفريط، ولقد وُجِد من بين أصحاب الأديان الكتابية مَن نظر إلى جانب البشرية فيهم، وأهمل الجانب الآخر، ووُجد من بينهم مَن نظر إلى جانب اصطفاء الله إياهم، ووحيه إليهم، وأهمل جانب البشرية فيهم، وكلا الفريقين ضَلَّ عن الحق وتنكَّب الطريق السوي.

فبنو إسرائيل نظروا إلى جانب البشرية في الرسل، ولم يقيموا كبير وزنٍ لما امتازوا به من خصائص اصطفاهم الله لرسالته على أساس منها؛ ولذلك ضلوا في سيرتهم مع رسلهم وأنبيائهم، فنسبوا إلى الأنبياء أقبح الصفات، ووسموهم بأشنع القبائح، فنسبوا إلى موسى قتل هارون عليه السلام، واجترأوا عليه بالأذى فبرأه الله مما قالوا.

يقول تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

ونسبوا إلى لوط الزنا بابنتيه، ونسبوا إلى داود الزنا بزوجة جندي من جنوده، ثم الزواج بها بعد أن قتل زوجها عمدًا بغير حق، ونسبوا إلى سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ الكفر بالله وعبادة الأوثان في أخريات حياته، ووصل بهم الاجتراء على رسل الله وأنبيائه إلى حد أنهم قتلوا الكثيرين منهم، وكان سلوكهم مع أنبياء الله ورسوله سلوكًا مشينًا غير لائق، استحقوا من أجله خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

وإنما وقع لهم هذا بسبب أنهم نسوا مميزات الرسل وخصائصهم التي توجب لهم معاملةً خاصةً لا تكون لغيرهم، بما لهم من خصائص أولًا، وبما اكتسبوا من مكانة سامية باختيار الله إياهم رسلَه وأنبياءَه ثانيًا.

وأما النصارى فلقد ذهبوا إلى النقيض من ذلك، فقد نسوا بشرية رسولهم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم فُتِنوا بمميزاته وخصائصه، وذهبوا في الافتتان به إلى أقصى الحدود، حتى انتهى بهم الأمر إلى تأليهه ووضعه ضمن أرباب ثالوثهم المقدس.

أما الإسلام فلقد عرف للرسل طبيعتهم البشرية، ثم عرف لهم في نفس الوقت حقهم في التقدير والتكريم بمقتضى خصائصهم ومميزاتهم، ومكانتهم من ربهم، وفي هذين الجانبين يقول الله تعالى لرسوله ﷺ:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

وفي الآية الكريمة بيان لبشرية محمد ﷺ وحتى لا يتفلسف البعض فيقول: نعم؛ هو بشر لكن من نوع خاص، أو ما يماثل ذلك.

قال الله تعالى:

﴿بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، حتى يقطع الطريق على الذين يولعون بالغلوِّ في رسول الله ﷺ.

ثم جاءت خصيصة الاصطفاء والامتياز بجانب البشرية فقال تعالى: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

فاكتمل في الآية الكريمة جانبًا الإيمان بالرسل- صلوات الله على نبينا وعليهم-: جانب البشرية المثلية، ثم جانب الاصطفاء والامتياز، ولكل جانب حاجاته ومقتضياته التي بين لنا- بحوله تعالى- على الصفحات الآتية.

ولما كانت رسالة المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ سابقة على رسالة محمد ﷺ، ولما كان النصارى قد وقعوا فيما وقعوا فيه بالنسبة للمسيح ﷺ فنسوا بشريته ونفوها نفيًا قاطعًا، وغلوا فيه حتى ألَّهوه عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد عني الإسلام عناية خاصة بتأكيد البشرية للرسل، وتأكيدها بوجه أخص لمحمد ﷺ، حتى لا يقع المسلمون فيما وقع فيه النصارى قبلهم.

بشرية الرسل

أكد القرآن الكريم بشرية الرسل جميعًا في آيات كثيرة، منها:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ ﴾ [يوسف: ١٠٩].

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ ﴾ [الرعد: ٣٨].

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ ﴾ [الأنبياء: ٧].

بشرية محمد ﷺ:

ومع أن بشرية الرسل قبل محمد ﷺ تقتضي بشريته أيضًا؛ إذ هو واحد منهم، إلا أن القرآن عني بتأكيد بشريته هو ﷺ بنوع أخص:

﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٥١].

﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

﴿ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴾ [الإسراء: ٩٣].

﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقد يظن البعض أن الرسول ﷺ مع بشريته قادر على الإتيان بالخوارق والمعجزات كلما أراد، أو قادر على هداية من يشاء وإضلال من يشاء، أو يعلم الغيب، أو يغني ويُفقر.

وردًّا على ذلك جاء القرآن الكريم ينفي عن محمد ﷺ كل هذه الأمور، التي أثبتها النصارى للمسيح فَضَلُّوا وأَضَلُّوا.

فمحمد لا يفعل المعجزة، وإنما يفعلها الله على يديه، وهي تقع بمشيئة الله لا بمشيئته هو.

يقول- سبحانه-:

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ [يونس: ٢٠].

وعندما يسأل الكفارُ رسولَ الله ﷺ أن يأتيهم بآية، يرد عليهم بأنه ليس إلا بشرًا رسولًا، لا يملك شيئًا مما يطلبون.

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

ومحمد ﷺ لا يملك نفع غيره ولا ضره، بل هو لا يملك ذلك حتى لنفسه، يقول له ربه سبحانه:

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

والرسول ﷺ لا يملك الهداية للناس، وإنما ذلك من شأن الله وحده، يقول له ربه تعالى:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦].

وإنما الرسول ﷺ بشير ونذير فقط، يقول سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥].

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢].

ومحمد ﷺ لا يعلم الغيب، ولا يملك إغناءً أو إفقارًا.

يقول له ربه سبحانه:

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقد يخطئ الرسول ﷺ فيعتب عليه ربه عتابًا يشتد ويلين حسب المناسبة، يقول الله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٨].

ويقول سبحانه لرسوله:

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧].

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس: ١١].

ومن هذا العتب الإلهي الكريم، يبين لنا أن رسل الله لا علاقة لهم بالله إلا

بقدر ما يستجيبون له ويصدعون بأمره، فإذا ما انحرفوا عن ذلك استحقوا عقاب الله على قدر ما يخطئون، وهذا يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ يلتقمه الحوت، ولولا أنه نادى في الظلمات مسبِّحًا ومعترفًا بذنبه ونادمًا لظلَّ في بطن الحوت إلى يوم يبعثون.

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٩ - ١٤٤].

هذا منهج الإسلام بالنسبة للجانب الأول: جانب بشرية الرسل.

أما بالنسبة للجانب الآخر، جانب امتيازهم بخصائص ومميزات انفردوا بها عن سائر البشر، جانب تشريف الله لهم باصطفائه إياهم لتلقي رسالاته وتبليغها إلى الناس- بالنسبة لذلك الجانب نرى الإسلام قد عرف للرسل ذلك الحق، وقدَّر فيهم ذلك الفضل، فخصَّهم بالتعظيم والتقدير، وأحاطهم بالتكريم والتبجيل.

فهذا كتاب الله تعالى ينهى عن التعرض للرسول بالإيذاء.

يقول تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وبعد أن ينهي الإسلام عن إيذاء رسل الله- صلوات الله عليهم- يضع منهجًا حكيمًا يوضح للمسلمين كيفية معاملتهم رسول الله بما يضمن له عَلَيْهِ السَّلَامُ ما هو جدير به من تقدير وتعظيم وإجلال.

فيجب على المسلمين إذا كانوا مع رسول الله ألا ينصرفوا حتى يستأذنوه

ويأذن لهم:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢].

وإذا خاطبوا رسول الله ﷺ يجب أن يراعوا في ذلك مقتضيات اللياقة والأدب، وذلك يقتضي منهم أن يخصوه بالتكريم والتعظيم في الخطاب بشكل يجعله مميزًا عنهم جميعًا:

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

ويجب عليهم ألا يقدموا بين يديه فعلًا ولا قولًا، بل يجب أن يكونوا له تبعًا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١].

ويجب عليهم أن يراعوا الأدب مع الرسول حتى في أصواتهم التي يلزم أن يخفضوها؛ إجلالًا لحضرته ﷺ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

وقد ارتفع الإسلام بمقام رسول الله ﷺ إلى حد أن أوجب على كل من يريد أن يناجيه أن يقدم لله صدقةً، ثم عفا الله عنهم، وأعفاهم من ذلك رحمةً بهم:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة: ١٢].

ورسل الله- صلوات الله عليهم أجمعين- إخوة على طريق واحدة، فهم رهط من الجند يجاهدون في سبيل نصرة مبدأ واحد، تعريف الخلق بالحق، واجتذابهم إليه، وتبليغهم رسالته، وهدايتهم إلى طريقه، فالسابق منهم يمهِّد للَّاحق، واللَّاحق يكمل رسالةالسابق، ويمشي بها خطوات إلى الأمام على

طريق الكمال، وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: «الأنبياء إخوة من علات، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد، فليس بيننا نبي»[١].

ولأن رسل الله إخوة، كان واجبًا علينا أن نؤمن بهم جميعًا، ولا نفرق بينهم: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ولذلك كان الذين يفرقون بين رسل الله هم الكافرين حقًّا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ﴾ [النساء: ١٥٠- ١٥١].

والإسلام يوجب على المسلمين ويلزمهم بأن يؤمنوا بكل رسل الله السابقين:

﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

ورسل الله ليسوا معلومين لنا على التفصيل، ولم يرد للكثيرين منهم ذكر في كتاب الله، وإنما ورد ذكر بعضهم تفصيلًا. وهؤلاء الذين ذكرهم كتاب الله تفصيلًا لم يسلك ذكرهم سبيلًا واحدة، وإنما منهم من ذكره الله- تعالى- بالاسم فقط، مثل: اليسع وإدريس، ومنهم من ذكره وذكر القوم الذين أرسل إليهم دون كبير تفصيل، وذلك مثل: صالح، وهود، ولوط، ومنهم من استغرق

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٢) ومسلم (٢٣٦٥).

الكلام عنه وعن رسالته جزءًا كبيرًا من كتاب الله سبحانه، مثل: موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي استغرق الكلام على قصته مع قومه ثلث القصص القرآني.

وقد ورد في كتاب الله ذكر خمسة وعشرين نبيًّا من أنبياء الله تفصيلًا، وورد في كتاب الله إشارة إلى الباقين، وأنه يجب الإيمان بأن لله رسلًا سوى هؤلاء المذكورين.

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ:

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

والرسل في دعوتهم الناس إلى دين الله في حاجة ماسة إلى إثبات دعواهم أنهم رسل الله إلى الناس، وأنهم مبعوثو الحق إلى الخلق.

وفي سبيل ذلك أيدهم الله بالمعجزات، وهي أمور خارقة تظهر على أيدي مدعي النبوة، يَتَحَدَّوْنَ الناس أن يأتوا بمثلها، وذلك كانقلاب عصا موسى إلى ثعبان مبين، وإحياء عيسى الموتى، وإسراء رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس.

وهذه المعجزات ليست رهنًا بإرادة الرسل أو مشيئتهم، وإنما هي رهن بمشيئة الله تعالى، فليست تقع بإرادة الرسل، وإنما حين يريد الله رب العالمين.

فقد تأتي المعجزة من غير طلب، وقد يطلبها الناس ويستشرف الرسول إليها ولكنها لا تحدث، فالمعجزة ليست هدفًا، وإنما هي وسيلة تأتي بحكمة وقدر، وكثيرًا ما طلب الكافرون من رسول الله ﷺ أن يأتيهم ببينة، فكان ينزل عليه قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت: ٥٠].

والمعجزات لا تقع بكثرة، وإنما هي نادرة الوقوع، تقع على فترات متباعدة، وذلك ضروري في إنتاج المعجزة أثرَها المرجو، فإن المعجزة لو كثر

وقوعها كلما رغب الناس فيها وطلبوها لَضَعُفَ أثرها في النفوس، وفقدت منها موقعها الذي تبحث عنه، ولكن كلما طلبوها فامتنعت، ورغبوا فيها فتأبَّت، عَظُمَتْ رغبتُهم فيها،واشتدَّ شَغَفُهُم بها، وما يزالون على رغبة فيها، وشغَف بها، حتى إذا وقعت صادفت نفوسًا ظمأى، وقلوبًا عطشى، وكذلك لو كثر وقوع المعجزة، وشاهدها الناس في غدواتهم وروحاتهم، لأضحت أمرًا قريبًا من العادة والإلف، فضعف في النفوس أثرها، وأخطأت من القلوب موقعها، وبالتالي لم تُنتج الأثر المرجوَّ منها.

ومن هنا فنحن نرفض ما نراه مسطورًا في الأناجيل النصرانية من معجزات المسيح ﷺ التي لا تُعد ولا تُحصى، ففي كل مكان كان يتجول فيه المسيح كانت المعجزات تترى، والمرضى الذين شفاهم المسيح، والموتى الذين أحياهم يجلُّون عن العَدِّ والإحصاء، حتى لكأن شعب فلسطين قد تحول كله إلى مرضى على عهد المسيح، وكأن المسيح قد تحول إلى ساحر، وكأن الله بعثه ليُمِيتَ الله الناس فيحييهم المسيح، ويُمرض الله الأصحاء فيشفيهم المسيح، إننا نرفض ذلك كله وكل ما هو من قبيله، فالمسيح لم يأت ليحيي الموتى ويشفي المرضى، وإنما أتى بمعجزة، وهذه تتحقق بالقليل النادر، وليس بالكثير المبتذل.

والمعجزة وسيلة إلى تصديق الناس بالرسل وإيمانهم بما جاءوا به، ولكنها ليست بالضرورة وسيلة إقرار وهداية، فهناك فارق كبير بين التصديق والإقرار، فالتصديق أمر طبعي جبلي، فعندما يرى الإنسان المعجزة لا يملك إلا أن يصدق بدعوى صاحبها، وأما الإقرار بذلك التصديق، والتسليم لصاحب المعجزة فأمر آخر، فالكفار يرون المعجزات، ويصدقون بدعوى أصحابها،

ولكنهم لا يقرون ولا يذعنون؛ ليس تكذيبًا، ولكن استكبارًا وحجودًا، وقد قال الله تعالى لرسوله عَلَيْهِ السَّلَامُ في بيان ذلك:

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وما دام الأمرُ أمرَ استكبار وجحود، فلن تُصلح نفوسَهم معجزةٌ مهما كان شأنها، فكلما أتيتهم بمعجزة أَتَوْكَ بحجة جديدة من الكذب والاستكبار.

يقول تعالى:

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤-١٥].

والمعجزات منها مادي ومعنوي، فالمادي: كانقلاب العصا ثعبانًا، وإحياء الموتى، وانشقاق القمر، والمعنوي: كالتوراة والإنجيل والقرآن، والمعجزة المادية قصيرةُ الأجل، ضعيفة الأثر، على عكس المعجزات المعنوية؛ فإنها باقية الأثر ما بقيت، ولقد ذهبت معجزات الرسل السابقين على رسول الله ﷺ ماديُّها ومعنويُّها على سواء.

أما المادي: فلأن أثره مقصور في الغالب على الجيل المشاهد له، ثم يضعف حتى يمحى أو يكاد.

وأما المعنوي: كالتوراة والإنجيل فلأن يد اليهود والنصارى طاشت فيهما بالتحريف والتبديل، فلم يبق منهما ما يصح أن يكون معجزة، ولقد أكرم الله خاتم المرسلين محمدًا ﷺ بالمادي والمعنوي على السواء، ولكن الله تعالى أعطاه القرآن معجزة معنوية، وتكفل الله بحفظه معجزةً باقيةً أَبَدَ الدهر وإلى يوم الدين، وما ذلك إلا لأنه كتاب العالمين إلى يوم الدين.

وكما أوتي رسول الله ﷺ أعظم معجزة وهي القرآن، أعطاه الله تعالى معجزة الخُلق العظيم، فلقد صنع الله محمدًا على عينه، وأبدعه ومكَّنه من ناصية الأخلاق الإلهية حتى كان منها على خلق يصح أن يوضع في عداد المعجزات، ولقد دانت له من الظواهر الطبعية ما لو قال إنها معجزات لأذعن الدَّهر وسلَّم، ولكن الرسول ﷺ ارتفع بخُلقه العظيم فوق هذه المعجزات الزائفة، ورفض أن يهتبل الفرصة التي ساقت له الظاهرة، فكان رفضُه هذا معجزةً دونها كل المعجزات، وآيةً على صدقه دونها كثير من الآيات.

فلقد كَسَفَتْ الشمسُ يومَ وفاة ابنه إبراهيم، وكان الناس قد شاهدوا من حزنه عَلَيْهِ السَّلَامُ على ابنه ما يصح أن تنكسف له الشمس، ولهج الناس بأن الشمس كَسَفَتْ لوفاة إبراهيم بن محمد ﷺ، ولو لم يكن محمدٌ صادقًا لاهتبلها فرصةً، ولكنَّ محمدًا رفضها، وجاء رفضُه معجزةً فوق المعجزة ذاتها، فقال للناس: «**إنَّ الشَّمْسَ والقَمَرَ آيتَانِ مِنْ آياتِ اللهِ، لا تَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٤٤) ومسلم (٩٠١).

البشارات بخاتم الرسل

محمد رسول الله وخاتم المرسلين جميعًا، وقد أخذ الله العهد والميثاق على الأنبياء جميعًا أن يؤمنوا به وأن يبشِّروا به أقوامهم.

قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

فهو سيد الأنبياء وخاتمهم، آمن به كلُّ الأنبياء قبل وجوده، وتشوَّفوا إلى بعثته وأقرُّوا بإمامته لهم وفضله عليهم.

وهذه الحقيقة مسلَّمة لا شيء فيها.

ولكن الكثيرين من الباحثين المسلمين أُولِعوا بأن يثبتوا ما زعموا أنه بشارات برسالة محمد ﷺ في كتب الأنبياء السابقين، وأن يبحثوا عنها في مظانِّها.

وذلك جهد يشكرون عليه، لولا أن الولوع بذلك قد جرفهم إلى غير سبيل المؤمنين، فأخذوا يحمِّلون الألفاظ غير مدلولاتها، والعبارات غير ما هو مفهوم منها، وأقاموا صرحًا شامخًا من بشارات برسول الله ﷺ تقوم كلها على التكلُّف والتعمل بما لا يستسيغه عقل أو منطق، وظنوا أن ذلك يُعلي من شأن الإسلام ورسول الإسلام، مع أن الأمر قد يكون على عكس ذلك تمامًا - كما سنرى.

ولذلك رأينا أن نختم كلامنا عن هذه الفقرة بالكلام عن بشارات الأنبياء برسول الله ﷺ وما نراه فيها.

ويجب ابتداءً أن نفرق بين أمرين:

الأول: البشارات الحقيقية التي وردت في كتب الأنبياء السابقين، وهي حق لا ريب فيه، مَن أنكرها أو شَكَّ فيها فقد كفر؛ فإن ثبوت البشارات بخاتم الرسل محمد ﷺ في كتب الأنبياء السابقين، وبخاصة توراة موسى، وإنجيل عيسى عليهما السلام - حق لا ريب فيه، وقد ثبت ذلك بالنصوص القطعية من كتاب الله ﷻ، يقول سبحانه:

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ويقول المسيح عيسى ابن مريم مبشرًا بخاتم الرسل - صلوات الله عليهم أجمعين:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦].

فالبشارات برسول الله الخاتم ثابتة في الكتب السابقة، ولكن أين هي هذه الكتب؟ لقد طاشت يد اليهود بالتبديل والتحريف في توراتهم، وأما النصارى فقد أضاعوا الإنجيل الحقيقي الصحيح، ولم يعد له وجود.

لذلك كانت العبارات التي أخذها بعض الباحثين من توراة اليهود وأناجيل النصارى زاعمين أنها بشارات، أو أنها البشارات، كانت هذه العبارات مرفوضه منا، ولنا عليها ملاحظات.

ودون أن أتعرض لذكر هذه البشارات أذكر هنا بعض ما أراه من المآخذ عليها:

أولًا: أن هذه الكتب التي نُقلت هذه البشارات منها مرفوضة منَّا أساسًا، ولقد قام رفضنا إياها على أسس علمية من انقطاع السند في كلها، وثبوت التحريف في جُلِّها، وبذلك لم يعد صالحًا أن نتخذ منها أسسًا نستند إليها في إثبات نبوة محمد ﷺ، ولا يقول قائل: إننا نأخذ الحجة على الخصم من مسلَّماته؛ لأنا نقول: إن شرط المسلَّمات الملزمة للخصم أن تكون مسلَّمة الألفاظ والدلالات منه، ولكن الخصم لا يسلِّم لنا تفسير رموز تلك العبارات المذكورة بحيث تفيدنا البشارة المرتقبة.

ومعنى هذا أننا نرفض هذه العبارات بنصوصها، والخصم يرفض تفسيراتنا لرموزها، فهي مرفوضة منَّا ومنهم.

ثانيًا: أن المسلمين في إثبات نبوة محمد ﷺ وكل ما جاء على لسانه قد ابتدعوا أسلوبًا فَذًّا في ذلك، وهو أسلوب التثبُّت عن طريقي السند والمتن، وقد اشتهر ذلك عنهم، وكان فقدان ذلك الأسلوب العلمي الثبت في كتب اليهود والنصارى أكبر أسلحة المسلمين في مهاجمة هذه الكتب، فإذا جئنا وسلَّمنا ببعض ما جاء في هذه الكتب كان ذلك يعني أحد أمرين:

الأول: أننا نسلم بصحة هذه الكتب، وذلك نقيض ما ذهبنا إليه من رفضنا إياها البتة.

الثاني: أننا نسلم بالبعض دون البعض، وفي ذلك مطعن ضد نزاهتنا العلمية، حيث نتعامل مع الكتاب الواحد بأسلوبين، فنرفض بعضه؛ لأنه لم يوافق مدَّعانا، بحجة طعون معينة، ونسلِّم بالبعض لأنه وافق هوانا، مع أن الطعون نفسها موجَّهة إليه كما هي موجَّهة إلى سابقه.

ثالثًا: أن هذه البشارات تذهب بالكثيرين إلى إبطال بعض الحق، وإحقاق بعض الباطل، وتجعلهم يتناسون المنهج المنطقي في معالجة الموضوعات والحكم على الأشياء، وتحملهم على التعمُّل والتكلُّف بصورة لا تتفق مع أبسط مبادئ العقل والمنطق.

وذلك مثل هؤلاء الذين يأخذون البشارات من كتاب «زرادشت»، فهم قد حكموا أولًا بنبوته، وحكموا ثانيًا بصدق كتابه، وأنه وحي أوحى به الله، وأن ما جاء به مما يخيل إليهم أنه بشارة إنما هو كلام الله لا ريب فيه، وهذه دعاوى لا يقطع بصحتها مَن يحترم العقل والمنطق.

رابعًا: أن هذه البشارات ينقطع منها الأمل في إثبات رسالة محمد ﷺ؛ لأنها رموز، والرمز يحتمل الأمر وخلافه، ومتى دخل القضية الاحتمال، بطل بها الاستدلال، وذلك أمر لا خلاف عليه منطقيًّا.

خامسًا: أن وجود هذ البشارات المزعومة لا يفيد؛ لأنه لن تثبت نبوة نبي لم تثبت نبوتُه بغيرها، وأن انعدامها لن ينفي نبوة نبي ثبتت نبوته بغيرها، فهي إذن لا قيمة لها إثباتًا أو نفيًا.

سادسًا: أن هذه البشارات تترك أثرًا سيئًا في نفوس الكثيرين ممن يطلعون عليها، فالكثيرون- وبخاصة أنصاف المثقفين- حين يطالعون هذه البشارات ويشاهدون عنايتنا بها وتعويلنا عليها، يعتقدون أن هذه الأدلة المتهافتة هي أساس ثبوت رسالة سيِّدنا محمد ﷺ عندنا، أو أن لها مكانًا هامًّا في إثبات نبوته، وهنا يصابون بخيبة أمل كبيرة؛ إذ يدركون خطأً أن رسالة رسولهم إنما ثبتت بمثل هذه الأدلة السَّاقطة.

سابعًا: أن هذه البشارات لن تنفع المؤمنين برسالة محمد ﷺ، فأدلة نبوته ﷺ عندنا من درجة اليقين الثابت كثيرة ومضيئة وباهرة، فلسنا بحاجة إلى هذه العبارات المتهافتة، وهي كذلك لن تنفع في إقناع الكافرين من يهود ونصارى؛ لأنهم يرفضون تفسيراتنا هذه النبوءات والبشارات، ولها عندهم تفسيرات ومرامٍ تخالف ما ندَّعيه نحن، وعلى ذلك فهذه البشارات عديمة الفائدة، وليس لها نتيجة إيجابية لا بالنسبة للؤمنين بمحمد ﷺ ولا بالنسبة للكافرين برسالته، فأولى بنا أن نصرف النظر عنها.

ولقد يقول قائل:

إن الله تعالى ورسوله ﷺ قد أخبرانا بوجود هذه البشارات، فتكذيبنا إياها تكذيب بصريح أخبار القرآن العظيم، وهدي النبي الكريم ﷺ.

ولكنا نقول:

إن الكتب السالفة قد طاشت فيها يد المحرفين بالتحريف والتبديل، وليس فيها شيء يؤمَن له أو يُطْمَأَنُّ إليه، وحتى هذه البشارات- مع التسليم باتفاقها في بعض وجوه تفسيراتها مع ما نقصد إليه- فإنها غير مأمونة أيضًا.

فلسنا نضمن أنها عبارات من وضع المحرِّفين والمبدِّلين قُصد بها وجه آخر من الوجوه التي يحتملها التأويل.

ومثلنا في ذلك كمثل رجل أخبره مَن لا يكذب عنده بأنه قد وضع في الكيس حبة من الليمون، وبعد أن عبث اللصوص بالكيس ومحتوياته، وضع الرجل يده في الكيس فإذا هو يجد بداخله شيئًا مدوَّرًا في حجم حبة الليمون، وبدون تَرَوٍّ أخذ الرجل يقسم أن هذه هي حبة الليمون التي وضعها صاحبه؛ اعتمادًا على

صدقه عنده، وعلى أنها في حجم الليمونة وملمسها، وبعد أن يقيم الرجل الأدلة المجهدة على صدق دعواه في أنها ليمونة، يفتح الكيس ويفرغ محتوياته، فإذا هي ثمرة المشمش أو الخوخ أو ما شاكل ذلك.

ونحن على هذا الدرب، ربما لو كُشف عنا الحجاب واطَّلعنا على الحقيقة لوجدنا أن هذه البشارات المزعومة لا هي من التوراة ولا من الإنجيل، ولا هي من كلام الله، وإنما هي من أباطيل المحرفين يقصدون بها وجهًا آخر من المعاني قد نعرفه وقد لا نعرفه.

وبناء على هذا نقرر أن كل من يروج لهذه البشارات هو على خطرٍ أن يُسند إلى الله سبحانه كلامًا لم ينزله الله، أو يثبت من التوراة والإنجيل ما ليس منهما، وفي ذلك من الافتراء على الله والحق ما لا يعلم إلا الله.

الإيمان بالقدر

الإيمان بالقدر هو ثمرة الإيمان بالله، ونتيجته اللازمة، وهو يقوم على إيمان العبد بالله تعالى، وصفاته كلها، ويقوى إيمانه - على الأخص - بصفات ثلاثة هي:

١ - الوحدانية.

٢ - العدل.

٣ - الرحمة.

الوحدانية والقدر

إن العبد حين يعترف لله بالواحدنية، وأنه مالك الملك، يتصرف فيه كيف يشاء، وأنه لا شريك له، ولا ند له، فالتصرف في الملك من شأنه وحده- فإن العبد لا بد وأن يؤمن بالقدر وأن يرضى به؛ على أساس أنه تصرُّف المالك في ملكه، وأن تصرُّف المالك في ملكه حق لا يجوز الاعتراض عليه.

العدل والقدر:

والعبد حين يؤمن بعدل الله في تصريف الأمور، يرتفع بالإيمان بالقدر درجةً أخرى فوق ما سبق؛ لأنه حين يعرف أن الله الذي له المشيئة الكاملة في ملكه، وله وحده تصريف أموره، قد وعد بأن يكون ذلك التصرف قائمًا على العدل، فلا يظلم الناس شيئًا؛ فإن العبد حينئذ يقوى وازعُ الرضا بالقضاء عنده؛ لأنه عرف أن تصرف الله في ملكه ليس قائمًا على الطغيان والتجبُّر، وإنما هو قائم على العدل والحق.

الرحمة والقدر:

والعبد حين يؤمن بصفة الرحمة لله الرحمن الرحيم، ويوقن بها، فإن إيمانه بالقدر ورضاه بالقضاء يكون قد وصل آنئذ إلى ذروة التسليم الكامل، والاطمئنان النفسي التام، بل إن الإنسان لا يرضى بقضائه لنفسه كما يرضى بقضاء الله له؛ لأنه سبحانه أرحم بعبده من الأم الشفيقة بولدها الوحيد.

وفي الكتاب العزيز تصوير لهذه المنازل الثلاث:

المنزلة الأولىٰ: يقول تعالىٰ:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

المنزلة الثانية: يقول تعالىٰ:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٤].

المنزلة الثالثة: يقول تعالىٰ:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

وقضاء الله في الكون سابق على وجود الكون، شامل لكلياته وجزئياته، عامٌّ لجماده وحيوانه وإنسه.

يقول تعالى:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ﴾ [الحديد: ٢٢].

ويقول الرسول الكريم ﷺ: «السَّعِيدُ مَن سَعِدَ في بَطْنِ أُمِّهِ، والشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ»[1].

---

(١) أخرجه الطبراني في الصغير (٧٧٣) والبيهقي في القضاء والقدر (١٠٧).

والرضا بالقضاء دليل الإيمان الحق، والإسلام الكامل، فالمؤمن الحقيقي والمسلم الكامل يسلم نفسه لله، ثم لا يرى فيما يقضي به الله تعالى فيه إلا كل عدل، بل كل رحمة وفضل؛ ذلك أن المؤمن يعلم جيدًا أن الله- تعالى- لا يقضي إلا بكل ما يصلح شأن المؤمنين، والإنسان حين يرى خلاف ذلك يكون مخطئًا، ويأتي هذا الخطأ من قِصَر نظره، وقصور فهمه، ولكن الله تعالى بعلمه المحيط هو أعلم بما يصلح شأن العباد من أنفسهم، ولربما رأى العبد أن المصلحة تقتضي أمرًا مع أن فيه المفسدة لا المصلحة، والعكس صحيح.

يقول تعالى:

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

والرضا بالقضاء ليس معناه ترك الأسباب، وإنما الأخذ بالأسباب واجب مع ذلك، بل إن الأخذ بالأسباب من جملة الرضا بقضاء الله، فالله سبحانه هو الذي أمر بالعمل والسعي، ومزاولة الأسباب مع الجد والنشاط، وأخذ الحيطة والحذر، فإن وصل المرء إلى مطلوبه فذلك من توفيق الله وعونه، وإن لم يصل بعد أن بذل غاية جهده، فليسلم بالقضاء وليعلم أن الخير فيما قدَّره الله وقضى به، فهو سبحانه أعلم بما يصلح له من نفسه التي بين جنبيه؛ لأنه هو العليم الخبير.

والإيمان بقضاء الله والرضا به، من شأنه أن يَشُدَّ من عزم المؤمن وأن يقوي من إرادته؛ فإن المؤمن حين يعلم أن الله العادل الرحيم هو الذي يجازي وهو الذي يقضي، فإنه يعمل بجد ونشاط وهمة؛ لأنه يعلم أن الله العادل الرحيم لن يضيع تعبه، ولن يحرمه ثمرة جده ونشاطه.

يقول سبحانه:

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

فإذا ما باء سعيُ العبد وجدُّه بنتيجة لا يرضاها، وإذا ما ذهب عملُه سدًى، وإذا ما أصيب بمصيبة في ماله أو ولده، كان الرضا بقضاء الله أكبر عامل يساعده على الوقوف على قدميه، وعلى البدء دائمًا من جديد؛ فإن إيمانه بأن ما نزل به هو من الله، جدير بأن يجدد فيه العزم؛ لأن الله سوف يعوِّض له ما خسر، لا لشيء إلا لأنه هو العادل الرحيم، ولأن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، والمؤمن القوي هو الذي يكون واسع الثقة بالله، رحب الأمل في كرمه وجوده، فإذا ما نزلت بساحته نازلة، قام يدافعها مستعينًا بحول الله وقوته، فإذا ما عجز عن ردها ودفعها، لم يجلس جلسةَ الحزين يقول: لو أني فعلت كذا كان كذا، ولكن ينسى ذلك، ويرجع إلى إيمانه وثقته وأمله في الله، ويقول: «قدر الله وما شاء فعل»[١].

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

الخاتمة

الحمد لله أولًا، والحمد لله أخرًا، ثم الحمد لله على كل حال.

أما بعد:

فهذا الذي بين يديك- أيها القارئ الكريم- هو ما تيسر من جهد حول موضوع من أخطر الموضوعات التي تتناولها الدراسات الإسلامية، بل لعله أخطرها، ذلكم هو موضوع الأديان، وبيان ما هو منها حق، وما هو منها باطل.

وقد مررنا خلال الدراسة بالأديان الوضعية الباطلة، وبعد أن ألقينا عليها مزيدًا من التحليل والنقد، استقر بنا المقام عند دين الله الحق: الإسلام.

وإننا نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يزكي ما في البحث من صواب، وأن يتجاوز عما فيه من تقصير، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم.

سبحانك اللهم وبحمدك- أشهدوا أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

محمود محمد مزروعة

محتويات الكتاب

مقدمة ٥

المبحث الأول: تعريف الدين ٧

الاختلاف حول تعريف الدين ودوافعه ١٢

أدلة الرأي المعارض ونقدها ١٦

الدين في اللغة ٢٠

الدين في الاصطلاح ٢٦

تعريف الدين في رأينا ٣١

المبحث الثاني: أقسام الدين ٣٩

القسم الأول: الدين الإلهي ٤١

القسم الثاني: الدين الوضعي ٤٢

العوامل الذاتية ٤٥

العوامل الخارجية ٤٦

المذهب ٤٨

الدين بين الوحدة والكثرة ٥١

المبحث الثالث: فطرية التدين ٥٣

معيار تقسيم الدوافع الإنسانية ٥٧

التدين غريزي أو غير غريزي ٥٨

الدافع الديني فتح مجال العلم والأخلاق والآداب ٦٨
الردُّ على الطعون التي وجهت إلى التدين ٧٩
المبحث الرابع: نشأة الدين الوضعي ٧٥
بداية التدين الوضعي ٨٠
أطوار الدين الوضعي ٩٥
الطور الأول: عبادة الطواطم ٩٧
الطور الثاني: عبادة الظواهر الكونية ١٠٠
الطور الثالث: عبادة الإله المفارق ١٠٩
العقيدة الوضعية بين التعديد والتوحيد ١١١
أما بعد ١١٥
المبحث الخامس: الدين الحق ١١٧
رسالة محمد ﷺ ١٢٣
العقيدة والشريعة ١٢٥
أنواع الغيب ١٢٩
المبحث السادس: ركائز العقيدة ١٣٣
١ - الله جل جلاله ١٣٥
٢ - اليوم الآخر ١٤٢
٣ - الملائكة ١٥٤
٤ - الكتب ١٥٩
القرآن الكريم والسنة الشريفة ١٧٠
السنة الشريفة ١٧٠
ثبوت هذين المصدرين ١٧٢

٥ - الرسل ١٧٥
بشرية الرسل ١٧٧
البشارات بخاتم الرسل ١٨٨
الإيمان بالقدر ١٩٤
الوحدانية والقدر ١٩٥
العدل والقدر ١٩٥
الرحمة والقدر ١٩٥
الخاتمة ١٩٩
محتويات الكتاب ٢٠١

تم بحمد الله